الباب الثالث

فنون التكهن الصنعي

عند مفكري الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

فنون التكهن الصنعى

عرضنا فى الباب السالف مذاهب مفكرى الإسلام ، فى فنون التنبؤ الطبيعى الذى يصدر عن وحى أو إلهام إلهى ، أو يكون صدى فطرة لا أثر فيها لصناعة واكتساب ، وسنشرع الآن فى عرض أساليب التكهن الصنعى ، الذى يستند إلى منطق العقل ومهارة الصنعة وسعة الخبرة ، واستغلال المشاهدة واستخدام الأدوات الحسية ، وغير هذا مما يجىء اكتسابا ، قد لا يمنع من توافر طبيعة تهيئ أصحابها لذلك ، فإذا استشعروا فيها النقص عمدوا إلى تكملتها بأسباب يتحرونها عامدين ، وقد أبى جمهرة مفكرى الإسلام التسليم بهذه الأساليب ، ورفضوا أن يأذنوا بمزاولتها ولكنها كانت معروفة فاشية حتى قبل نزول الإسلام ، ومن هنا وجب التحدث عنها :

— ١ —

علم الكهانة[1]

آفاق الكهانة :

تطلق الكهانة على كثير من ضروب التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها ،

(١) يراد بالعلم هنا مجرد المعرفة البشرية فى ميدان ما ، وليس يتحتم أن يطلق اللفظ على =

وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وأهل الزجر والفأل ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم[١] ولكن جمهرة مؤرخيها يحدونها بأنها اتفاق الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من جن وشياطين ، واتخاذهم أداة لمعرفة ما يتصل بالمستقبل من الأحوال الجزئية الحادثة فى عالم الكون والفساد ، وهى أشيع فى العرب منها فى غيرهم من شعوب الأرض ، واشتهر من بينهم شق وسطيح[٢] ومرجع انتشارها بين العرب وندرتها عند غيرهم أنها تتولد «على صفاء المزاج الطبيعى ، وقوة مادة نور النفس» وتتصل « بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم » وذلك أن العزلة تدفع النفس إلى التفكر ، فيتأدى بها هذا إلى الكشف عن الغيب بالعين النورية ، ومتى قويت النفس فى الإنسان ، أشرفت على دراية الغائبات قبل ورودها ، وقد كان كبار مفكرى اليونان ، ينعتون هذه الطائفة بالروحانية[٣] . ولكن بعض مؤرخيها لا يقصرها على معرفة المستقبل وحده ، ويرى أنها تكشف عن مجاهل الغيب ، ما اتصل منه بالماضى والحاضر والمستقبل[٤] . ولكن اشتمال

= المعرفة اليقينية كما ذهب المتكلمون (ص ٧ ج ١ من أبجد العلوم) للقنوجى ولا أن تنتظم هذه المعرفة فى صورة قواعد وقوانين كما يستلزم معنى العلم — وبعض ما سنعرف من العلوم ، ليس علوما مستقلة ، لكنها فروع لعلوم فيما يقول القنوجى (فى آخر فهرس الجزء الثانى) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٢ وما بعدها .

(٢) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ص ٣٠١ و ٣٠٢ وحاجى خليفة فى كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ طبعة دار الطباعة المصرية والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٦٠٠ وقيل إن الكهانة لليمن والزجر لبنى أسد والقيافة لبنى مدلج (المسعودى ج ٢ ص ٨٠) .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥

(٤) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ص ٣٠١ وكما أن أهل الفن ليسوا على اتفاق فى هذا الصدد ، فكذلك الحال فى أهل اللغة ، ففى اللسان (ج ١٧ ص ٢٤٣) أن الكاهن من =

الكهانة على ما سلف من ضروب التنبؤ ، يبرر الظن بأنها تتضمن الكشف عن الماضى والحاضر والمستقبل ، فإن العرافة نفسها تعتبر ـ عند بعض المؤرخين ـ من فروع الكهانة[١] .

وقيل إن الكاهن لا يستعين فى صناعته بآلة ولا بإظهار حساب ولا بنظر فى كتاب ، بل بجودة الحفظ وذكاء النفس وصحة العقل وحسن التميز وحدّة الخاطر ، مع مساعدة ماتفق له فى مولده الذى أوجب له ذلك[٢] ، وهى قوة إلهية تتوافر فى الناس بسهام سماوية وأسباب فلكية وأقسام علوية ، يرثها بعض الناس فرداً عن فرد[٣] ، ولكن بعض المؤرخين قد شطرها شطرين : خص أحدهما بالتوارث وجعل الكهانة فيه من نواحى بعض النفوس ، فلا تجىء اكتسابا[٤] ، فيزعم هذا النوع من الكهان بأن له تابعاً من الجن ورئيا يلقى إليه الأخبار . أما الصنف الثانى من الكهانة فهو ما كان بالمزائم ودعوة الكواكب والاشتغال بهما[٥] . وفى المصادر العربية الكثير من أخبار الكهان[٦] .

= يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ، ويقول التاج (جـ ٩ ص ٣٢٩) تكهن أى قضى بالغيب ـ ولم يحدد لذلك زمانا ـ ولكنه يعود فى تفرقة الكهانة من العرافة فيقول (جـ ٦ ص ١٩٣) بأن العراف من يخبر بالأحوال المستقبلة ، والكاهن من يخبر بالأحوال الماضية .

(١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٩٢ ويصرح المسعودى (جـ ٢ ص ٨٤) بأن العراف دون الكاهن .

(٢) إخوان الصفا جـ ٤ ص ٣٨٢ .

(٣) أبو حيان التوحيدى فى المقابسات ص ٣٢٦ ـ الطبعة الأولى عام ١٣٤٧ هـ

(٤) ، (٥) حاجى خليفة فى كشف الظنون جـ ٢ ص ١٩٥ والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٦٠٠

(٦) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

أصل الكهانة :

إذا كانت الكهانة قد فشت عند العرب ، فقد عرفت عند غيرهم ، وقد ردها بعض اليونان والرومان إلى صفاء النفوس ، على اعتبار أن صور الأشياء عندهم قائمة فى النفس الكلية ، وقد ذهب بعضهم إلى أن الأرواح المنفردة - وهى الجن - تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم قد صفت حتى اتفقت مع أرواح الجن ، ومرد الكهانة إلى ثلاثة مصادر :

أولاها : استراق السمع - ويكون هذا طريق شيطان يسترق السمع ويلقى بالأخبار إلى الكهان ، قال تعالى « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » وقال كذلك « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ... » الآية. والمعروف أن الشياطين والجن لا تعلم الغيب ، ولكنها تسترق السمع مما يسمع من الملائكة ، قال تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » .

وثانيها : الوحى الفلكى - ذلك أن للكواكب أثرا على مولد الناس - وسنعود إلى بيان هذا فى فصل التنجيم .

وثالثها : العلل النفسية - فالنفس : « إذا قويت ، قهرت الطبيعة وأبانت للإنسان كل سر لطيف » .

وقد رد أصحاب هذا الرأى العلم للنفس ، لا للجسم الذى اعتبروه مواتا لا تعتريه حركة ولا يغشاه حس إلا بالنفس[1] . وسيضح بعض هذا عند ما نعرض للعلاقة بين الكهانة والنبوة .

---

(١) المصدر السالف ص ٨٢ - ٨٤ وقارن « مرجليوث » فى مادة Divination (Muslim) فى دائرة معارف الدين والأخلاق .

صلة الكهانة بالنبوة :

أشرنا إلى أن بعض المفكرين يرى أن فى النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها ، وأن هذا يتحقق للأنبياء فطرة لا اكتسابا ، ولا يحتاجون فيه إلى الاستعانة بشىء من المدارك أو التصورات أو الأفعال البدنية كلاما أو حركة أو نحو ذلك ، وإذا سلمنا بهذا الاستعداد الفطرى فى الطبيعة البشرية ، أوجب العقل أن نسلم بوجود صنف من البشر أدنى من الأنبياء رتبة ، لأن هـذا الانسلاخ لا يتهيأ له بغير الاستعانة بما أسلفنا الإشارة إليه من مدارك وأدوات[1] ، فإن هذه القوة الإلهية — الكهانة — إذا أحس بها من نفسه تحرك بالإرادة ليكمل نقصها فيبرزها فى أمور حسية[2] جزئية محسوسة أو متخيلة من أجسام شفافة وعظام حيوانات ، وماسنح من طير أو حيوان ، فيستديم إحساسه بذلك ليستعين به على الانسلاخ السالف الذكر ، ولما كانت هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن بلوغ الكمال ، كان إدراكها للجزئيات أكمل من إدراكها للكليات ، وأداتهم فى ذلك مخيلة بالغة القوة ، وليس يقوى الكاهن على إدراك المعقولات إدراكا كاملا ، لأن وحيه من وحى الشيطان[3] ، فإذا كان الكاهن لايشوب فنه بشىء من الحس ، ويلقى نبوءته على صفائها ونقائها ، كانت كهانته أقوى وأكمل ، لأن قوتها تنسكب عندئذ من المحل الأعلى ، ولكن نفوس الكهانة على نقص وقصور — كما أسلفنا — ولهذا اعترى الخطأ نبوءاتهم ، لأن قوتهم لا تبلغ الغاية فى الخلاص أبداً[4] ، ومن

---

(١) ابن خلدون فى مقدمته ص ٨٧

(٢) ابن مسكويه فى الفوز الأصغر ص ١١٣

(٣) ابن خلدون ص ٨٧ (٤) أبو حيان التوحيدى فى مقابساته ص ٢٢٧

أجل هذا قيل إن الكهانة تكون عن مغيب والنبوة عن مبين ، والعيان معلوم ، والغائب موهوم[١] ، ولهذا فإن صاحب النبوة لا يخطىء ، وهذا هو الذى يميزه عن الكاهن ، والكاهن إذا اتفق له أن يكون صادقا لا يتجاوز بما يدعيه رتبته ومقامه ، فإنه إذا لاح له أمر النبى عرف فضله وسارع إلى تصديقه ، وكان أول مؤمن به ومتتبع لأوامره ، كما روى عن سواد بن قارب وطليحة وغيرهما[٢] وإن كان النبى عرضة للسهو كما فى حديث ذى اليدين[٣] ولهذا يستعين الكاهن بالكلام المسجوع الموزون ، ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشىء على الاتصال الناقص ، فيحدس حدساً ربما صدق ووافق الحق ، وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر خارج عن ذاته المدركة مباين لها غير ملائم ، فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ، وربما يفزع إلى الظنون ويلوذ بالتخمينات ، حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتمويها على السائلين ؛ وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم ، وقد قال الرسول هذا من سجع الكهان ، فخص السجع بهم ، وقال لابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هذا الأمر؟ « قال يأتينى صادق وكاذب فقال خلط عليك الأمر ، أى أن النبوة خاصتها الدقة بحيث لا يعتريها الكذب أبداً ، لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى دون استعانة بأجنبى — كما هو الحال فى الكهانة[٤] وربما يتحرى الكاهن الكذب عامداً مخافة أن يبور سوقه وتكسد بضاعته ، فيخبر بما لا أثر له فى نفسه ، وما لا يجد له حركة ، وذلك لتمويه أمره ،

---

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ١٠٣

(٢) ابن مسكويه فى الفوز الأصغر ص ١١٤ وابن خلدون ص ٨٨ — ٨٩

(٣) أبو حيان التوحيدى ص ٢٢٧ وقد ورد الحديث مفصلا فى الهامش

(٤) ابن خلدون ص ٨٧ — ٨٨

فيضطر بذلك إلى الظنون والتخمينات[١] وربما عمد إلى الكذب طمعاً فى النبوة ؛ ويحملهم هذا على عدم التسليم بنبوة من يعاصرهم من الأنبياء ، كما وقع لأمية بن الصلت وابن صياد ومسيلمة وغيرهم ، فإن غلب الإيمان وانقطعت أمانيهم فى النبوة آمنوا أصدق إيمان — كما أشرنا من قبل[٢] .

وقد ذهب بعض المفكرين إلى أن الكهانه قد انقطعت بمجيء الرسول[٣] ، وأن الكهان قد حرموا بعد بعثة النبى من كشف الغيب ، حتى ورد فى بعض الروايات أن لا كهانة بعد النبوة ، ولهذا فليس يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم لأن هذا من دلالات الكفر ، فقد قال النبى : من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد — كما يروى الماوردى[٤] — وقيل إن النبى حين بعث وحرست السماء بالشهب ، ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة ، بطل علم الكهانة ، وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وأطلع نبيه بالوحى على ما شاء من علم الغيوب التى عجزت الكهنة عن الإحاطة بها — ولكن بعض المفكرين لا يسلم بهذا الرأى ، ويرى أن علوم الكهان قد تكون مستمدة من الشياطين ، وقد تكون من فيض نفوسهم ، والآية القرآنية التى نزلت فى هذا الصدد، إنما دلت على منع الشياطين من معرفة نوع واحد من أخبار السماء ، وهو ما اتصل بأخبار البعثة ، أما ما سوى ذلك فإنه مباح لهم ، ثم إن هذا الانقطاع قد اقتصر على زمن النبوة ، ولم يتجاوزه إلى غيره من أزمان ، فلعل الشياطين أن تكون قد عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه قبل عهد النبوة ، فإن هذه المدارك تخمد

---

(١) ابن مسكويه ص ١١٣ (٢) ابن خلدون ص ٨٩

(٣) ابن حزم ج ٥ ص ١٧

(٤) حاجى خليفه : كشف الظنون ج ٢ ص ١٩٥ والقنوجى ص ٦٠٠

زمنها كما تخمد الكواكب والسرج عند ظهور الشمس ، وقد زعم الحكماء أن الكهانة توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت ، لأن وجود النبوة يتطلب وضعا فلكياً يقتضيه ، ويتمشى تمام النبوة طرديا مع تمام ذلك الوضع ، عكسياً مع نقصه ، ونقصه يقتضى وجود طبيعة تشبهه فى النقص ، وهى طبيعة الكاهن ، وعلى هذا فإن الوضع الناقص الذى يقتضى قيام الكهانة ممثلة فى فرد أو أفراد ، يسبق الوضع الكامل الذى يستلزم وجود النبوة ، وقد انقضت الأوضاع التى تدل على مثل تلك الطبيعة ، فليس يوجد منها شىء بعد ، وقد قرر الحكماء هذا استناداً إلى أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره ، وهذا غير مسلم به ، فإن الوضع قد يقتضى ذلك الأثر ناقصا بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها ما اقتضى نقصها شيئا ، وقد رأينا أن للكهان بعض الوجدان من أمر النبوة ، كما أن فى كل إنسان بعض الوجدان منها إبان نومه ، ونسبتها فى الكاهن أعظم منها فى النائم ، وقد عرفنا موقف الكهان من النبى إن عاصروه[1] . وإذا كانت الكهانة نموذجا من النبوة أوضح من نموذج الرؤيا الصادقة ، فإن بعض الكهان قد طمع فى النبوة كما عرفنا من قبل ، وليس من العسير أن يعرف نبأ الكاهن الذى يدعى النبوة زوراً ، فإن معجزة النبي فعل خارق للعادة بالتحدى يؤيد النبوة عن الله ، أما الكهانة فإنها كلمات تجرى على لسان الكاهن ، تتراوح بين الصدق والكذب ، والنبى لا يكون إلا كامل الخلْق والخُلُق معاً ، أما الكاهن فإنه يكون مختل العقل ناقص الخلق مزوراً ، فإن ادعى النبوة بكهانته فقد انكشف أمره ، إذ قد يتصدى له كاهن آخر ويتحداه بكهانته ، فتمتنع الفروق بينهما ، وذلك ما لا يقع فى حال النبوة أبداً[2] .

---

(١) ابن خلدون ص ٨٨ — ٨٩

(٢) الشعرانى : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ١٤٥ وما نظن أن سائر المفكرين يسلمون معه بأوصاف الكاهن على النحو الذى أسلفه ، ولعل اختلال العقل يساعد على التكهن ولا يعوقه ..!

مراتب الكهان :

أشرنا فيما أسلفنا إلى الشائع من أصناف الكهان ، وهم يتفاوتون فى مراتب الكهانة ، والكاهن الأصيل لا يحتاج فى رفع حجاب الحس إلى عناء كبير ، أما هؤلاء فإنهم يحتملون المشقات فى حصر جميع مداركهم الحسية فى نوع واحد منها ، وأشرفها البصر ، فيعكف الكاهن على المرئى حتى يتراءى له المدرك الذى ينبئ عنه ، والكاهن لا يشاهد هذا المدرك فى سطح المرآة ، بل إنه يديم النظر فى سطحها ، ويطيل أمره حتى يغيب عن البصر ، ويبدو بينه وبين سطح المرآة حجاب ، كأنه غمام تتمثل فيه صور تشير على الكاهن بالمطلوب سلباً أو إيجاباً ، وهو لا يدرك من أمر المرآة وصورها شيئا ، وإنما يكون إدراكهم نفسانياً لا يتصل بالبصر ، ومن ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها ، وللناظرين فى الماء والكأس ونحوها ، ومن هؤلاء الكهان من يكتفى بأن يشغل الحس بالبخور ثم يهيئه بالعزائم ، ويخبر بعد هذا بما يدرك ، ويزعم بعض هؤلاء أنه يرى فى الهواء صوراً مجسمة تحكى له بالمثال والإشارة ما يبتغى إدراكه ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من غيبة من أسلفنا ذكرهم[1] .

نموذج من الكهانة :

نهضت دولة سبأ باليمن ، وكانت هذه على كثرة وديانها واتساع أرضها ، تعوزها الأنهار وتتهددها سيول الأمطار ، فأقام أهلها مئات السدود ، اتقاء لشر السيول ،

---

(١) ابن خلدون ص ٩٣ ويشبه الأستاذ « مرجليوث » Margoliouth ذلك بما يعرف حديثا بـ Crystal-gazers (أنظر مقاله فى دائرة معارف الدين والأخلاق)

ورغبة فى الانتفاع بالمياه المحجوزة فى رى الأرض ، وكان سد مأرب أعظمها جميعاً ، حوّل جدب الأرض خصوبة ، وعقمها إنتاجاً ، ولكنه تهدم وسرعان ما أغرق الزرع وأحال الأرض بلقعا ، فتشتت أهلها ، ومضت غسان إلى الشام والأزد إلى عمان ... الخ وقد ورد ذكر هذا السيل فى سورة سبأ من القرآن الكريم .

ويقول مؤرخو الكهانة إن الكهان قد عرفوا نبأ السيل قبل وقوعه ، ونصحوا أولى الأمر فى البلاد بالعمل على اتقاء شره ، وكان هذا فى عهد عمرو بن عامر الذى تولى رياسة ولد قحطان ، إذ كان أخوه « عمران » كاهنا عقيما ، وزوجته « ظريفة الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ، فأنبأ أخاه بما رأى فى كهانته ، وكان هذا أول نبأ عرف عن سيل العرم . وبينما كانت ظريفة الخير نائمة ذات يوم ، إذ رأت سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت إلى الأرض فلم تصب شيئا إلا أحرقته ، ففزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد ، وأتت زوجها الملك وهى تقول إن ما رأته قد أذهب عنها النوم ، إذ رأت غيما أبرق وأرعد طويلا ، ثم أصعق فما وقع على شىء إلا احترق ، فما بعد هذا إلا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروع ، سكّنوا من جأشها ، حتى ثابت إلى نفسها ، ثم دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفا لها أن يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجذ (دواب باليمن) منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها وجلست ، وطلبت إلى وصيفها إن يبلغها متى انصرفت هذه المناجذ ، فلما أبلغها ذلك ، انطلقت مسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديقة ، ووثبت منه سلحفاة وانقلبت على ظهرها ، وحاولت أن تعتدل على غير جدوى ، فاستعانت بذنبها وحثت التراب على بطنها وجنبها وقذفت بولا ، فهوت الكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السلحفاة إلى

الماء ، انطلقت ظريفة إلى زوجها فى الحديقة ، وكان النهار قد انتصف واشتد حره ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما أقبلت على زوجها ، ألفت الجاريتين على الفراش ، فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمغادرة الفراش لتأخذ زوجه مكانهما ، فكهنت هذه وقالت — فى سجع الكهان المعروف — : « والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لتالف ، وليعودَنَّ الماء كما كان فى الدهر السالف » . فسألها عمن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرتنى المناجذ ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لهفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر يتكفأ . » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هى داهية ركيمة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة . » قال وما هى ويلك .. ؟ قالت « أجلْ إن لى فيها الويل ، وما لك فيها من نَيْل ، فلى ولك الويل ، مما يجىء به السيل » فألقى نفسه عن الفراش وقال لها : ما هذا يا ظريفة .. ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ... » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين .. ؟ قالت : « اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جرذاً (فأراً) يكثر بيديه فى السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ، فاعلم أن الحفر حُفِر ، وأن قد وقع بنا الأمر . » قال وماهذا الأمر الذى يقع ..؟ قالت : « وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الشكل » فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقلب برجليه صخرة لا يقوى على قلبها خمسون رجلا .. ! فكرّ إلى زوجته ، وأنبأها بالخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادنى منه ألم ... وهاج لى من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجَم ... أو تيس صِرْمٍ من أفاريق الغنم
يسحب صخراً من جلاميد العرم ... له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سَحْباً من الصخر قضم ... كأنما يرعى خضيرا من سلم

فقالت ظريفة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ مجلسك بين الجنتين ، ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك ، فإن الريح تملأها من تراب البطحاء ، مع أن الجنان مُظَلَّلَة ، لا تدخلها شمس ولا ريح..! فلما فعل ، امتلأت الزجاجة بعد قليل من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى ترين هلاك السد .. ؟ قالت فى سبع سنين . قال ففى أيها يكون .. ! قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتى أحد علم ذلك لكُنْتُه ، ولا تأتى عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السد يبيد فى غدها أو فى أثنائها ، ورأى عمرو فى منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك ، أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البلاء واقع ، والخراب نازل ، فكتم الأمر واعتزم التخلص من ممتلكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سبأ ، ولكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال للأمر حتى أهانه ابنه وضربه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما .. ! فصاح : واذلاه .. ! وأقسم ألا يقيم بهذا البلد ، وباع كل ما يملك ، ثم استفتى أخاه الكاهن فى البلد الذى يرحل إليه ، فقال الكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد ، » فكان الذين نزلوه أزد عمان ، فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر « فكان الذين سكنوه خزاعة ؛ قال : « ومن كان منكم يريد ... إلى آخر ما يحكيه رواة القصة[1] .

ولنا على هذه القصة تعقيب نحاول فيه أن نحللها فى ضوء المنطق ، نرجئه إلى « موقفنا من التكهن الصنعى . »

---

(١) انظر المسعودى ج ٤ ص ٣٧٨ — ٣٩١ فى الطبعة الأوربية . وثمة أمثلة أخرى كثيرة رواها المؤرخون ، من أهمها تكهن « سطيح » بمجىء رسول الله (انظر الإبشيهى ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠)

— ٣ —

علم العرافة[١]

حدها وتمييزها عن الكهانة :

أشرنا إلى أن مفكرى الإسلام ليسوا على اتفاق بصدد التفرقة بين الكهانة والعرافة ، وقلنا إنهم رغم هذا الخلاف فى شأن اتصال الكهانة بالزمن الذى يكشف أصحابها أحداثه ، يرون أن العرافة تكشف عن أحداث المستقبل وحده ، وقد عرفنا ذلك عند أهل اللغة كذلك ، ومن المفكرين من خص العرافة بالمعرفة التى تقوم على أسباب سابقة تمهد لهم ، ولعل الأصح أن نخص العرافة بما كان عن كسب وخبرة واستدلال وحدس ، فإن ذلك أدعى إلى الاتفاق مع حدها الذى نراه عند مؤرخيها، من أنها معرفة الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية ، بالمناسبة أو المشابهة الخفية التى تكون بينهما أو الاختلاط أو الارتباط ، على أن يكونا معلولين لأمر واحد ، أو يكون ما فى الحال علة لما فى المستقبل ، وخفاء الارتباط يشير إلى أن الاطلاع عليه ليس ممكناً للناس كافة ، والذين يهتدون إليه ، يعتمدون على

---

(١) يشير المستشرق پينس S. Pines فى كتابه عن مذهب الجوهر الفرد عند المسلمين إلى أن للجاحظ كتابا يسمى باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس ، نشره وترجمه K. Inostranzei ويقول إن لهذا الكتاب شأنا فى دراسة معرفة مفكرى الاسلام بمذاهب الهنود فى العرافة والفراسة . وقد نقل كتاب Pines إلى العربية صديقنا الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده (والترجمة لم تطبع بعد) .

ما تهيأ لهم من تجربة ، أو من فطرة أودعها الله فى نفوسهم ، عبّر النبى عن أصحابها بالمحدثين أى المصيبين فى الظن والفراسة ، وكم فى الكتب التى أرخت هذا من أحداث وقصص تثبت صحة ما يدعيه أصحاب العرافة[1] ونلاحظ من هذا الحد أمرين :

أولهما :

أن العرافة لا تقوم على طبيعة النفس دواما ، فربما استندت إلى ما تهيأ للعراف من تجربة ومهارة وذكاء — فإن صح هذا — ولم يكن مؤرخوها أو ناشرو كتب تاريخها قد أخطأوا حين قالوا فى تحديد طريقتها « إما بالتجارب أو بالحالة المودعة فى أنفسهم عند الفطرة » . إن صح هذا كانت العرافة فى بعض حالاتها تجيء اكتسابا ، ولا تعتمد على طبيعة فى نفوس أهلها .

وثانى الأمرين :

أن العرافة — فيما نرى من حدها — لا تشمل الكشف عن الغيب متى اتصل بالماضى أو الحاضر ، وإنما تقتصر على ما ارتبط بالمستقبل وحده ، ولعل المفكرين على اتفاق بصدد الأمر الأخير (الاقتصار على كشف المستقبل) ، أما الأول فقد اختلفوا فى أمره ، حتى بدا هذا الخلاف عند المفكر الواحد . فمن ذلك أن ابن خلدون — وهو صاحب الفكر الناضج — يقيم العرافة على الفكر والحدس ، فيقول ما نصه « وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال — بالملأ الأعلى — فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ، ويأخذون فيه بالظن والتخمين

---

(١) طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٣ ، وحاجى خليفه ج ٢ ص ٢١ ، والقنوجى فى أبجد العلوم ج ٢ ص ٥٤٤ وما بعدها

بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك[1] . وقبل ذلك بصفحتين اثنتين يقرر عكس ذلك تماما ، أى أن العرافة تعتمد على الفطرة ولا تستند إلى الصناعة إذ يقول ما نصه :

« ثم إنا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم ، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ، ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما تجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين ... الخ[2] وقد أداه هذا التناقض بطبيعة الحال إلى أن ينتهى بالعرافة إلى نتيجتين متناقضتين ، فبينما نلاحظ أنه فى النص الأخير يعترف بأن العرافة من إدراك الغيب ، نجده يعقب على النص الأول قائلا « ويدعون بذلك معرفة الغيب ، وليس منه على الحقيقة .. ! » وقبل هذا التعليق بصفحة واحدة أشار إلى أنه مقبل على الحديث عن أصناف الإدراك الغيبى بعد أن أبان عن استعداد النفس البشرية له .. !

ولكن لا ينبغى أن يمنعنا هذا من تقرير الرأى الراجح ، وهو أن العرافة تقوم على استعداد فى بعض النفوس ، وتستند إلى صناعة تساعد هذا الاستعداد ، ولهذا اعتبرت إدراكا للغيب ، وإن صادفت من رجال الدين ما صادفته الكهانة من وجوه الإنكار ، والاستناد فيه إلى الأحاديث النبوية . وسنعرف هذا فى موقف الدين من هذه الفنون .

آفاقها :

تضمنت الكهانة الكثير من أصناف مدركى الغيب على نحو ما عرفنا من قبل ،

---

(١) ابن خلدون ص ٩٤ (٢) المصدر السالف ص ٩٢

وكذلك الحال فى العرافة ، وكما كان العرب يسمون كل من يتعاطى علما دقيقا كاهنا ، فكذلك أطلقوا على الطبيب والكاهن والمنجم والحاوى الذى يدعى علم الغيب عرافا ، ورغم سعة معناها على هذا النحو ، فإن بعض مؤرخيها قد اعتبرها من فروع الفراسة ، ولعل فى بعض ما أسلفناه من شرح معانيها ما يبرر إدخالها فى هذا العلم ، وفى الحديث النبوى السالف ما قد يؤيد ذلك ، وتقسيمها عند بعض مؤرخيها إلى ما يجىء اكتسابا وما يكون فطرة وطبيعة قد يقوى من هذا الاتجاه ، ولكننا آثرنا أن نفردها بالكلام لما بينهما من خلاف فى الموضوع ، أخصه أن الفراسة وإن كانت تكشف عن مجاهل مغيبة عنا ، فهى لا تكشف مستقبلا ولا ماضيا ، وإنما هى استدلال بالخلْق الظاهر على الخُلُق الباطن كما سنعرف بعد .

نماذج من العرافة :

جرى العرافون على الاستدلال على المغيَّب عنهم ، بكلمة تسمع عقب السؤال أو منظر يُرى ، أو مكان فى الجسد يضع السائل يده عليه عند توجيه سؤاله ، إلى آخر هذه العلامات التى سنتناولها بالتعليق عند ما نعرض لإبداء رأينا فى أساليب التكهن الصنعى .

ومن أمثلة العرافة أن كان فى زمن هرون الرشيد عراف أعمى ، يستدل عن المسئول عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال ، فسرقت من خزانة الخليفة أشياء ، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال ، فأمرّ العراف يده على البساط فوجد نوى تمر ، فقال إن المسئول عنه دُرّ وياقوت وزمرد فى سفط .. ! فسأل الرشيد عن مكانه ، فقال العراف إنه فى بئر ، فوجدوه كذلك .. !! وسئل العراف فى ذلك ، فقال وجدت نوى تمر ، وطلع النخله أبيض

وهو كالدر ، ثم يكون بسراً وهو أخضر ، وهو لون الزمرد ، ثم يكون رطبا وهو أحمر ، وهو لون الياقوت !! فلما سألتم عن مكان المسروق ، سمعت صوت دلو ، فعرفت أنه فى بئر .. ! فاستحسن الرشيد فراسته ، وأعطاه مالا جزيلا .. !

وكان أبو معشر وصاحب له مَارّيْن فى خلاص مسجون ، فسألا عرافا ، فقال أنتما فى طلب خلاص مسجون ، فسأله أبو معشر : وهل يخلص ؟ قال نعم تذهبان فتجدانه خلص ، فوجدا الأمر كما قال .. ! فلما استفسر أبو معشر عن ذلك ، قال له العراف نحن قوم نأخذ الفأل بالعين والنظر ، فينظر واحدنا إلى الأرض ، ثم يرفع رأسه ، فأول شىء يقع نظره عليه ، يكون الحكم به . فعند أول سؤال وجهته إلىّ ، رأيت ماء فى قربة فقلت هذا محبوس ، وعند السؤال الثانى نظرت فإذا هو قد أُفْرِغ من القربة ، فقلت يخلص .. !!

وقد يستدل العراف بالمكان الذى يضع السائل يده عليه فى جسمه عند السؤال ، فالرأس يرمز إلى الرئيس أو الكبير ، والأنف بناء مرتفع أو تل أو ماأشبه ، والفم بئر عذبة ... الخ[1]

حسبنا هذا ، ولنرجىء رأينا فى هذه النماذج ، إلى « موقفنا من التكهن الصنعى » .

---

(١) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٤ ـ ٦ والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٤٤٥ ـ ٥ وقد ذكر الإبشيهى (ج ٢ ص ١٠٣) قصة خلاف المسجون من غير إشارة إلى أبى معشر

— ٣ —

علم الفأل والطّيرة والعيافة

يراد بعلم الفأل عند مفكرى الإسلام ، الكشف عن الحوادث المقبلة اعتماداً على كلام يسمع من الغير اتفاقا ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفوا، وقد جرى هـــذا فى غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحافظ والمثنوى ونحوهما[١] . أما الطّيرة فالشائع أنها تطلق على عكس ما يطلق عليه الفأل ، فإن المطلوب فى الفأل طلب الإقدام ، وفى الطيرة طلب الإحجام ، وأصل الطيرة أن يتشاءم المرء من شىء تتأثر النفس من وروده على الأسماع أو الأبصار تأثراً يغير الطبع، فإن النفرة الطبيعية من الصوت الذى يحدثه صرير الزجاج أو نهيق الحمار أو نحوه ، ليست من هذا القبيل[٢] .

وقد جوز البعض استعمال الفأل فى الخير والشر معا، وفيما يحسن وفيما يسوء، ووردت الطيرة جنسا والفأل نوعا[٣] ، وفى الأمة ما يبرر هذا الاستعمال[٤] .

---

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ ، طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٨ والقنوجى ص ٥٥٤

(٢) طاشكبرى ٢٩٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ ، والقنوجى ٢٣٦ وفى شيشرون Cicero الذى ذكرناه من قبل أمثلة كثيرة عند الرومان تقابل هذا الذى عرفه المسلمون .

(٣) أشار التهانوى إلى الفأل بهذا المعنى العام الشامل ج ١ ص ٩٠٧

(٤) طاشكبرى زاده ص ٢٩٩ وحاجى ج ٢ ص ٦١ والقنوجى ٥٥٦ وعند الرومان ما يشبه ذلك تماما ، قارن شيشرون فى الفقرة الاربعين من الكتاب الثانى ، رداً على ماجاء فى الفقرة ٤٦ من الكتاب الاول .

وقد شاعت الطيرة عند الكثيرين من العرب حتى تكدر بذلك عيشهم وفسد دينهم ، وتفتحت عليهم أبواب الوسوسة لاهتمامهم بالمناسبات البعيدة من حيث اللفظ والمعنى ، كالسفر والجلاء من لفظ السفرجل إذا سمعه أو اهتدى إليه ، وإذا رأى الياسمين قال بأس ومين ..! واستنتج من السوسنة سوء سنة ..! وإن بارح داره فاستقبل صاحب آفة تطير بيومه وتشاءم وهلم جرا ..!![1] ومن المعانى التى تحملها الطيرة والفأل : فن العيافة عند العرب :

فن العيافة :

أطلق البعض العيافة على أحد قسمى القيافة ، ونعنى به قيافة الأثر — لا البشر — وسنتحدث عنها بعد ، ولكن الذى جرى لغة وإصطلاحا أن العيافة زجر الطيور[2]، وقد قال القاضى: إن العيافة هى الزجر ، وهو الفأل بأسماء الطيور وأصواتها وألوانها ، كما يتفاءل المرء بالعقاب على العقوبة ، والغراب على الغربة، والهدهد على الهدى، وقيل إنها تفترق عن الطيرة فى أنها تجمع بين التشاؤم والتسعد[3] ، ولكنا عرفنا أن أهل اللغة قد يوردون الطيرة جنسا والفأل نوعا . وعلى هذا فليس من فارق بينهما إلا فى أن العيافة قد خصت بالطيور ، فإن الأصل فى هذا أن العرب كانوا يزجرون الطير

---

(١) قارن تاج العروس ج ٨ ص ٥٤

(٢) القنوجى فى أبجد العلوم ص ٥٤٩ وقد أشار إلى أن هذا هو المعنى الذى يفيده القاموس والمصباح . وقارن فى العيافة إجمالا كثيراً من الفقرات التى وردت فى كتاب شيشرون تتبين الآراء المتقابلة بين المسلمين والقدماء ، وانظر الفرق بين العيافين عند الرومان وعند الأغريق وغيرهم ، فى الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الثانى ، وتعليق « فالكونر » عليها .

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ج ١ ص ٩٠٧

ـ وألحق بذلك غيره من ظباء ونحوها ـ أو يعافونه ـ أى يصيحون به أو يرمونه بحجر ـ فإن ولّاهم فى طيره ميامنة سموه سانحا وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسرة سموه بارحا وتشاءموا منه[١] ، فالسانح مرجو عند العرب ، والبارح هو المخوف[٢] ، وإن كان بعضهم يتطير بالسانح ويتيامن بالبارح ، فأهل نجد يتيامنون بالسانح ، وأهل التهائم بالضد من ذلك[٣] . وقد سمى الكاهن زاجراً لأنه إذا رأى ما يتوهم التشاؤم منه ، زجر بالنهى عن المضى فيه ، ويكون الزجر للدواب والإبل والسباع[٤] .

الفأل والطيرة بين التأثير والانتظار :

اختص العرب فى الجاهلية بالزجر ، وشاع الفأل بعد ذلك فى الإسلام[٥] ، فقد عرفنا أن الطيرة قد عكرت على العرب صفو عيشهم ، فلما أقبل الإسلام نهى النبى عن الطيرة فقال : «لا طيرة ولا هامة ولا سفر» ، وكان يحب الفأل ، قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً ينادى : يا سالم ، فقال لأصحابه سلمنا ، ولما دخلها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا ... هذا ما رواه أهل السير والله أعلم بسنده فيما يقول بعض مؤرخى الفأل والزجر[٦] .

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٩ ، والقنوجى ص ٥٥٥ ، ٥٣٦

(٢) المسعودى . مروج الذهب ج ٢ ص ٨٠

(٣) المصدر السالف ج ٣ ص ٨٢ وانظر هذا الخلاف بين الأغريق واللاتين فى تعليق شارل أبون على الفقرة السابعة من الكتاب الأول فى شيشرون .

(٤) كان الرواقية يردون حركة السانح والبارح ـ من الطيور ـ إلى إرادة الله ـ انظر الفقرة ٥٢ من الكتاب الأول فى شيشرون وتعليق شارل أبون على ذلك .

(٥) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧٤

(٦) القنوجى ص ٥٥٥ وطاشكبرى زاده ص ٢٩٨ والأبشيهى فى المستطرف فى كل =

وقد اشتهر عمر بن الخطاب باستكناه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو الإنذار ، فمن ذلك أن رسولا من ميدان نهاوند ، أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال قريب ، فسأله عن أبيه فقال : ظفر ، فقال عمر متفائلا : ظفر قريب إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله[١] .

وانصرف جعفر البرمكى إلى داره فى وقت خلت فيه الطرق من المارة ، فسمع منشداً يقول :

يدبر بالنجوم وليس يدرى ورب النجم يفعل مايريد

فتطير ودعا بالرجل وسأله عما يقصد ، فقال إن البيت عرض له وجرى على لسانه على غير مقصد ، فأمر له بدينار ومضى لوجهه وقد أدركه الضيق ، فلم يمض إلا قليل — فيما تقول الرواية — حتى أوقع به الرشيد[٢] ..!! وسنعود إلى مناقشة هذه الأمثلة ، وبيان اختلاف المسلمين فى الأخذ بها .

وقدشهد الشرع بجواز التفاؤل بالقرآن، وأيدت التجربة — فيما يقال — صدق هذا التفاؤل، ونقل عن الصحابة والسلف الصالحين، واشتهر الفأل الذى يؤخذ بفتح المصحف، وإن كان الأفضل الاعتبار بالمعانى دون الألفاظ والحروف[٣] ويسمى هذا بالاستخارة ويقول «ابن» إن من يزاولها يبدأ بتلاوة الفاتحة وسورة الإخلاص، والآية : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ... » ثلاث مرات ، ثم يسقط المصحف بحيث ينفتح

= فى مستطرف ج ٢ ص ١٠٣ ويشبه هذا مايرويه «كونتوس الرواقى» فى الفقرة الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين وغيرهما من الكتاب الأول من شيشرون . وقد فند شيشرون هذا الاتجاه فى الفقرة الأربعين من الكتاب الثانى .

(١) عبقرية عمر ص ٣٦ (٢) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٩٩

(٣) المصدران السابقان .

عرضا ، أو يفتحه عفوا ، ويستخلص الجواب من سابع سطر فى الصفحة اليمنى ، فإن لم يسفر عن جواب واضح ، كانت دلالة الكلام على الخير نذيرا ، وعلى الشر بشيرا ، وربما استعاض البعض عن ذلك ، بإحصاء حرف الخاء (خير) والشين (شر) فى الصفحة كلها ، ويستنبطون المطلوب من زيادة أحدهما على الآخر..!![1] وروى الماوردى فى أدب الدنيا والدين ، أن الوليد بن عبد الملك ، قد استفتى المصحف يوما ، فكان فأله « وخاب كل جبار عنيد » ، فمزق المصحف وأنشأ يقول :

تهدد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ماجئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقنى الوليد

وتقول الرواية إنه لم يلبث إلا أياما يسيرة ، حتى قتل شر قتلة ، وصلب رأسه على قصره ، ثم على أعلى سور بلده[2] ..!

ولكن البعض لم يسلم بجواز التفاؤل بالقرآن . وصرح الإمام أبو بكر العربى فى كتابه الأحكام فى سورة المائدة بعدم جوازه ، ونقله القرافى عن الإمام الطرطوشى ، وقال الدميرى ويقتضى مذهبنا كراهيته ، ولكن إباحه غير من عرفنا ابن بطة الحنبلى[3] وإذا كان فتح الفأل من التنزيل ممنوعا فكيف بغيره من كتب الأنبياء والأولياء والمشايخ[4] . وإذا كان بعض المؤرخين يتردد فى التسليم بالأحاديث النبوية التى تؤيد الفأل بكلمة تسمع عفوا ، ويتردد فى قبول سندها كما أشرنا من قبل ، فإن جمهرة المفكرين كانوا يترددون فى قبوله ، يقول ابن قيم الجوزية فى دار السعادة — ويردد صداه غيره من المؤرخين — إن ضرورة التطير وتأثيره لمن يخافه ويخشاه ويتغير منه ،

---

(1) E. W. Lane, p. 267 - 8 . ويعرض استخارة السبحة الشائعة

(٢) طاشكبرى زاده جـ ١ ص ٢٩٨ (٣) حاجى خليفة جـ ٢ ص ٦١

(٤) القنوجى ص ٥٥٥

وأما من لم يبال به ، فإنه لا يتأثر منه أصلا ، ولا سيما إذا قال عند المشاهدة أو السماع: اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك . اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك[١] ـ وفى الحق إن هذه ملاحظة قيمة طيبة ، يعرف قيمتها من كان له اتصال بالدراسات السيكولوجية فى هذا المجال .

صفة الساحر :

على أن الزجر لم يكن هيناً بهذه الصورة التى أسلفناها ، فليس كل امرئ بصالح لأن يكون زاجراً ، لأن هناك صفات ضرورية لا تتوافر إلا فى القليلين ، وفى ذلك يقول ابن خلدون « وأما الزجر فهو مايحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان ، والفكر فيه يعد مغيبه ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع ، وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها فى البحث مستعيناً بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما ، كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم وعند ركود الحواس ، تتوسط بين المحسوس المرئى فى يقظته وتجمعه مع ماعقلته فيكون عنها الرؤيا[٢] فأين هذا مما أسلفناه .. وأين هو على وجه التحقيق من الفأل أو الزجر الذى يكون صدى لكلمة يسمعها المرء عفوا واتفاقا ..! إن قيمة الوصف السالف تتضح إذا نحن ذكرنا ماتهيأ للفأل والزجر على هذا النحو الساذج من عراقة القدم ، وسنعود إلى مناقشة هذا وتفنيد الأمثلة السالفة ، عند ما نعرض لبيان موقفنا من فنون التكهن الصنعى .

---

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٦١ وطاشكبرى زاده ص ٣٠٠ والقنوجى ٥٥٦

(٢) ابن خلدون فى المقدمة ص ٩٣

— ٤ —

علم أحكام النجوم

علم التنجيم :

اصطلح المسلمون ـ فيما يقول الأستاذ « نللينو » C. A. Nallino ـ على تسميته بعلم ـ أو صناعة ـ أحكام (أو قضايا) النجوم ، وقالوا علم (صناعة) الأحكام ، ومنذ القرن الثالث عشر لميلاد المسيح ، سماه البعض « علم النجامة » ولكن علم أو صناعة النجوم أو التنجيم ، يطلق على التنجيم أو علم الفلك أو على العلمين معا ، ويقال للمشتغل بصناعة النجوم : الأحكامى أو المنجم ، وإن كان الأخير يطلق على الفلكى كذلك ، والتفرقة الدقيقة بينهما لم تحدث إلا فى القرن الغابر ، وقد جرى أكثر الفلاسفة وأصحاب فهارس العلوم والكتب الجامعة ، على نهج أرسطو وأتباعه فى تصنيف العلوم ، فاعتبروا التنجيم فرعاً من العلوم الطبيعية ، كالطب والفراسة والكيمياء وتأويل الأحلام ونحوه ، ولكن علماء الفلك والتنجيم وغيرهم من أمثال الفارابى وإخوان الصفا وابن خلدون ، قد جروا على نهج بطلميوس واعتبروا التنجيم فرعاً من العلوم الرياضية[١] والعلم الطبيعى والعلم الرياضى قسمان من أقسام الفلسفة ، ومن هنا جاء إقبال المشتغلين بالفلسفة ـ من أمثال الكندى ـ على التنجيم ، بل لقد أقبل على مزاولته أئمة الدين النزاعون للدراسات الفلسفية[٢] .

---

(١) نللينو فى مادة « التنجيم » بدائرة المعارف الإسلامية ـ فى نسختها العربية ـ وانظر كتابه : علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى ص ١٨ ـ ١٩ بوجه خاص .

(٢) قارن مصطفى باشا عبد الرازق فى كتابه : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٤٨ و ٢٢٠

ميدان هذا العلم :

يراد بعلم النجوم معرفة الاستدلال على حوادث الكون والفساد بالتشكلات الفلكية ـ أى أوضاع الأفلاك والكواكب[١]، ويتشعب إلى ثلاث شعب : أولاها علم الهيئة الذى يرمى إلى معرفة تركيب الأفلاك وكمية الكواكب وأقسام البروج وأبعادها وعظمها وحركاتها وما يتبعها من هذا الفن ، ويبحث ثانيها فى معرفة حل الزيجات وعمل التقاويم واستخراج التواريخ وما شاكل ذلك ، أما ثالثها فهو علم أحكام النجوم ، وهو العلم الذى يرمى إلى معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج وحركات الكواكب على الكائنات قبل كونها تحت فلك القمر[٢]

والقسم الأول نظرى والثانى عملى والثالث هو أحكام النجوم[٣] ، ويقرر إخوان الصفا فى الرسالة السابعة ، بأن النجوم « معرفة كمية الأفلاك والكواكب والبروج وكمية أبعادها ومقاديرأجرامها ، وكيفية تركيبها ، وسرعة حركاتها ، وكيفية دورانها وماهية طبائعها ، وكيفية دلائلها على الكائنات قبل كونها »[٤] وهذا ـ فيما لاحظ الأستاذ نللينو من قبل ـ يتفق مع التعريف السالف فى معناه واشتماله على علم الهيئة وأحكام النجوم معا ، ولكن ابن سينا يجرى مجرى الفارابى وأكثر فلاسفة الإسلام

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٦ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٣٨١ والقنوجى ص ٦٧٢ والتهانوى ج ٢ ص ١٤٢٨ ، وفى مقدمة الكشاف ص ٤٤ ، ٥٠ ـ ٥١

(٢) إخوان الصفا : ص ٧٣ (فى الرسالة الثالثة وهى وقف على علم النجوم)

(٣) نللينو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى ص ٢٥ ـ ٢٦ وهو يشير إلى أن المقريزى قد نقل هذا النص حرفيا (فى كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٧ من طبعة مصر) من غير أن يشير إلى مصدره .

(٤) إخوان الصفا ج ١ ص ٢٠٣

من حيث إنهم لا يعتبرون أحكام النجوم من الأقسام الفرعية للحكمة الطبيعية ، كالطب والفراسة وتعبير الرؤيا وما أشبه ، وعلى هذا يراد بأحكام النجوم البحث فى دلالات الكواكب ... الخ . أى على ما يقع فى مستقبل الأيام أو فى حاضرها ، أو ما وقع فى ماضيها[١] . وقد فرّع بعض المفكرين علم النجوم إلى أحكام النجوم — الذى أسلفناه الآن — وإلى علم النجوم التعليمى وهو الذى يعد فى العلوم ، وأما الأول فإنه يعد فى القوى والمهن التى بها يقتدر الإنسان على الإنذار بما سيكون[٢] ، وفرعه بعضهم إلى علم النجوم التعليمى البرهانى وعلم النجوم الطبيعى ، ويراد بالثانى معرفة أحكام الكواكب وتأثيرها فى عالم الكون والفساد ، وأول ما اشتهر به فى الإسلام محمد بن إبراهيم (الفزارى) وكان يجرى على مذهب العرب ، وأعقبه محمد بن الجهم البرمكى ، أما من سلك مسلك العجم من الفرس واليونانيين وغيرهم فهم (يعقوب) بن طارق وما شاء الله الهندى وغيرهما[٣] .

والذى يعنينا هو علم أحكام النجوم ، وهو لا يعتبر — وفقا لحذه السالف — من أجزاء علم الهيئة ، كما يخرج من نطاقه علم الرمل والجفر لأنه لا يبحث عن أحوال النجوم[٤] وقد فرق المؤرخون بين النجوم وأحكام النجوم فقالوا إن الأول يعرف

---

(١) الفارابى فى إحصاء العلوم : ص ٤٣ (نشرة زميلنا الدكتور عثمان أمين)

(٢) نفس المصدر السالف ص ٤٣ — ٤٤

(٣) ابن صاعد الأندلسى ، فى طبقات الأمم ص ٨٠ — ٨١

(٤) التهانوى في ص ٥٠ — ٥١ ولكن ابن خلدون يعد الرمل من فروع علم النجوم وقدنقل عنه هذا الرأى القنوجى فى أبجد العلوم — ص ٤٠ وذهب إلى هذا الرحالة « لين » Lane وسنعرف رأيه بعد قليل .

بالحساب فهو من فروع العلم الرياضى ، وأما الثانى فيعرف بدلالة الطبيعة على الآثار فهو من فروع العلم الطبيعى (١) .

ويستخدم التنجيم بوجه خاص — فيما يشير « لين » فى معرفة طوالع المواليد ، وتعيين أوقات الحظ ونحو ذلك ، وكثيراً ما يستخدم للتكهن بالبرج الذى يتأثر به الإنسان ، وذلك بعملية حساب تقوم على القيم العددية لحروف اسم الفرد واسم أمه ، وكثيراً ما يُستغل هذا لمعرفة التوافق عند الإقدام على زواج ، وقد عرف « لين » أن علم الرمل الذى يبدو فى صورة علامات ترسم عفوا على ورق أو رمل ، ويزعم أهله أنه يكشف عن الماضى والحاضر والمستقبل — يقوم فى أصله على علم التنجيم (٢) .

فى تاريخ التنجيم وتطوره :

شاعت النجامة منذ الماضى السحيق عند قدماء الشرقيين من أشوريين وكلدانيين ومصريين ونحوهم ، ممن مكنتهم طبيعة بلادهم وحياتهم من ملاحظة النجوم ومراقبة حركاتها (٣) . وقد ذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن آراء الهيلينيين (التى كانت مزاجا من التفكير اليونانى والروح الشرقى) فى مجال التنجيم والرؤيا والسحر ونحوه ، قد أصبحت عربية إسلامية فيما (يقول بكر Beker) ، وأن غير هؤلاء يرون أن الأفلاطونية الجديدة هى التى مكنت لعلم التنجيم عند بعض المسلمين من أمثال إخوان الصفا ، إذ أن القضاء عند أهلها هو علم الله السابق بما توجبه أحكام

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦

(٢) E. W. Lane فى كتابه السالف الذكر ص ٢٧١

(٣) عشرون فى الكتاب الأول فى الفقرتين الأولى والثانية والاربعين .

النجوم[١] وإن كان المتكلمون من معتزلة وأشاعرة على اتفاق فى إنكار هذا العلم الذى يؤدى إلى إنكار أن الله هو العلة الوحيدة والمباشرة لكل الأحداث[٢] .

وفى الحق إن مصادر التنجيم الإسلامى متباينة كل التباين ، وقد تتلمذ أهله على اليونان من أمثال بطلميوس وتوسر Teucer وأنتيوخُس ، وأخذوا عن مصادر بهلوية وهندية ، وضمنوا مصنفاتهم ما كان شائعاً فى أرض الجزيرة والشام ومصر ، ومن هنا كان الخلط فى الطرائق عند أمثال أبى معشر .

ولكن المسلمين يمتازون على من سبقوهم — فيما يقول الأستاذ نللينو — بأنهم بلغوا شأوا بعيدا فى الحسبانات ، إلى جانب جهودهم فى التلفيق بين مختلف الطرائق ، وقد عرضوا هذه الحسبانات فى رسائل فلكية إلى جانب مسائل أخرى فى حساب المثلثات الكرّى « ووضع الحاسبون توصلا لهذه الغاية كثيرا من الجداول الرياضية المفصلة ، وهم يختلفون فى هذه الناحية عن المنجمين اليونان والهنود الذين كانوا يقومون بحسبانات مبتسرة ، وكانوا يتنكبون عن الاستبحار فى الرياضيات المعقدة[٣] » .

ومن رأى الأستاذ نللّينو — وهو حجة فى هذا الصدد — أن العرب قد ظلوا على

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص١٤٦ ، وياقوت فى طبعة مرجليوث ص ٣٦٠

(٢) أبو حيان التوحيدى ، المقابسات ص ١٢٤ وقد أوضح هذا بشىء من التفصيل جلد تسيهر Goldziher فى مقاله عن موقف أهل السنة من علوم الأوائل (ترجمة زميلنا الدكتور بدوى فى كتابه التراث اليونانى السالف الذكر) وفى المقال معلومات طيبة عن التنجيم وموقف المسلمين منه، وإشارات قيمة إلى مصادر هامة فيه .

(٣) نللينو فى مادة التنجيم بالمصدر المذكور آنفا، وانظر فى التنجيم عند الآشوريين — ومنهم الكلدانيون — والمصريين ومن إليهم من القدماء ، الفقرة الأولى والثانية والأربعين من الكتاب الأول فى العلم بالغيب (شيشرون) .

جهل بصناعة أحكام النجوم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض ، ويصرح بأنه لا يكاد يجد من هذه الصناعة شيئا فى أشعار الجاهلية وأخبارها ، على وفرة ما يروى من اشتغال العرب بالكهانة والقيافة والزجر والطِّيَرة وما يشبه ذلك من أنواع التفاؤل ، وإن كان العرب الذين استقروا خارج جزيرتهم بعد أواسط القرن الأول، قد قالوا بتأثير الكواكب فى السعد والنحس على الأخلاق ، ونقلوا هذا عن الأمم الأعجمية التى سكنت بلادهم ، أما حرفة المنجم وصناعة أحكام النجوم عند العرب فى القرن الأول للهجرة ، فإنه لم يعثر على ذكرها إلا فى حكايتين ينفى صحتهما[١] ، وسنعرض لهما عند حديثنا على التنجيم فى قصور الخلفاء .

ويرى « نالينو » أن الأمير خالد بن يزيد + ٨٥ هـ (حفيد معاوية مؤسس الدولة الأموية) هو أول من ترجمت له كتب فى الطب والنجوم والكيمياء ، وأن من المحتمل أن تكون كتب النجوم التى قيل إنها ترجمت له ، كتبا فى أحكام النجوم لا فى علم الهيئة[٢] .

ولا غرابة فى إيثار العالم الإسلامى لأحكام النجوم على علم الهيئة ، لأن الناس من سليقتهم مولعون بكل ما يثير الغرابة ويكشف عن آفاق المستقبل المحجب ، ولعل أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية ، هو « أحكام النجوم » المنسوب إلى هرمس ، والمظنون أن ترجمته كانت قبل انقراض الدولة الأموية بسبع سنوات ، وعند ما انقرضت هـــذه الدولة (١٣٢ هـ ٧٥٠ م) واختلط العرب بالمهاليك والموالى ـ وأكثرهم من الفرس ـ استيقظت نهضة كان من آثارها ، شغف الخلفاء بتلك الفنون[٣] ـ على ما سنعرف بعد قليل .

---

(١) نالينو : علم الفلك ص ٣٢٤ وما بعدها

(٢) المصدر السالف ص ١٣٧ (٣) المصدر السالف ص ١٤٢ ـ ٣

وفى خلافة المنصور نقل أبو يحيى البطريق ، كتاب الأربع مقالات ـ الذى وضعه بطلميوس فى صناعة أحكام النجوم ، وأثر الفرس فى المسلمين عند بدء اهتمامهم بهذه الصناعة تأثيراً ملحوظا ، فكان نَوْبَخْت والطبرى من الفرس ، وشاعت الاصطلاحات الفارسية فى كتب ماشاء الله[١] .

وقد أقبل المسلمون على دراسة هذا العلم ، إقبالا نلحظه فى نشاط خصومه وأنصاره معا ، ونتبينه فى كثرة ما كتب عنه ، وقد ذهب « بكر » Beker فى مقاله السالف إلى أن مفكرى عصر النهضة قد أخذوا عن العرب التنجيم والعرافة الهيلينية ، كما تضمنها الكتاب المعروف « غاية الحكيم » وإن كان هؤلاء ـ فيما يرى ـ أعظم من المسلمين نفاذا إلى باطن الأشياء ورغبة فى اكتشاف الحقيقة .

طرق التنجيم :

فى وسع المنجم المسلم أن يأخذ بثلاث طرائق كبرى لايتجاوزها :

١ — طريقة المسائل : ويراد بها الإجابة على أسئلة تتصل بحياة الناس اليومية ، من الإخبار بغائب أو معرفة سارة أو استعادة مفقود أو نحو ذلك ، وهذه الطريقة أبسط الطرق وأشيعها .

٢ — طريقة الاختيارات : وهى اختيار الأوقات التى تلائم القيام بعمل ما .

٣ — طريقة تحاويل السنين : وتقوم على أن الصورة السماوية فى زمن المولد ، تحدد طالع المولود بالدقة ، وقد اتبعها بطلميوس ، وقد فصل الأستاذ « نللينو » فى بيانها وبيان غيرها من طرق ثانوية عند المسلمين[٢] .

---

(١) المصدر السالف ص ١٤٦ و ١٨١

(٢) نللينو Nallino فى مقاله السالف وانظره أيضا مادة (Sun, moon) Stars فى الدين الإسلامى فى Ency. of Religion and Ethics

علم التنجيم بين أنصاره وخصومه :

ولعل من الخير أن نبسط فى تاريخنا لهذا العلم ، أدلة منكريه ورد مؤيديه عليها واحداً بعد واحد ، فإن ذلك أدعى إلى تحديد مكان هذا العلم فى رءوس الفريقين معا :

انعقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم ، وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندى وإخوان الصفا وفخر الدين الرازى[١] . وقد اشتغل الكندى بالنجامة ، وحقد عليه أبو معشر المنجم — فيما يروى صاحب الفهرست — وعرض المسعودى فى الجزء الأول لبيان آرائه فى تأثير العالم بالأشخاص العلوية ، وبهذا ربط الحوادث الأرضية بحركات النجوم[٢] فلنعرض لموقف منكريه ومؤيديه :

قال منكروه أن ليس فى معرفة الكائنات قبل كونها صلاح لإنسان من الناس « لأن فى ذلك تنغيصاً للعيش واستجلاباً للهم ، واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها »[٣] — ويبسط المنكرون ما يجنيه المشتغلون بالعلوم من وراء الطب والنحو والفقه والشعر والحساب والبلاغة والهندسة والهيئة ونحوها ، ثم يعقبون على هذا قائلين إن علم النجوم ليس كذلك ، فإن صاحبه وإن استقصى وبلغ الحد الأقصى ، فى معرفة الكواكب وتحصيل مسيرها ، واقترانها ورجوعها و ... حتى

---

(١) المصدران السالفان للأستاذ نللينو وتفصيل هذا فى المصدر الثانى .

(٢) مصطفى عبد الرازق باشا : فيلسوف العرب والمعلم الثانى ص ٤٢ — ٤٣

(٣) قارن إخوان الصفا جـ ١ ص ١٠٧ ، جـ ٤ ص ٣٢٣ (مكرراً بألفاظه) وقارن هذا بالفقرة التاسعة من الكتاب الثانى (شيشرون) يتضح التشابه بين هذا الرأى واتجاه شيشرون الرومانى .

إذا حكم أصاب ، فإنه لا يستطيع ألبتة قلب عين شيء ولا صرف أمر إلى أمر ولا نفى ملمة قد كتبت، ولا دفع سعادة قد أجمّت وأطلت ، فالعالم الحاذق فيه المتناهى فى حقائقه مضطر إلى الاستسلام للقدر ، فيتساوى بذلك مع أجهل الجهال ـ هذا على افتراض الصدق فيما يزعمه أهله[١] ، ولكن مؤيديه يردون قائلين إن الإنسان : « إذا علم ما يكون من حادث فى المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها ، لا بأن يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها كما يفعل سائر الناس ويستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار ، ولحر الصيف بأخذ الكن ، ولسنى الغلاء بالادخار ، ولمواضع الفتن بالهرب منها والبعد عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم » ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا الحوادث قبل كونها ، أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله ، والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع[٢].

ومن وجوه الإنكار أن النورى وهو أحد الأئمة المجتهدين (+ ١٦١ هـ) لقى المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حظ قوى فى سهم الغيب والإخبار بأمور الحدثان ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشترى ، وأنا أرجو رب المشترى ، وأنت تغدو بالاستشارة وأنا أغدو بالاستخارة فكم بيننا ..؟[٣] ذلك أن المنجم إنسان ناقص الأصل زائد الفرع ، وزيادته لا ترفع

---

(١) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ١٢٠ ـ ١٢٣ وقارن الفقرة الثامنة فى الكتاب الثانى لشيشرون تعرف وجه التشابه بينهما .

(٢) إخوان الصفا جـ ١ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ وقارن الفقرة العاشرة من الكتاب الثانى فى شيشرون ، فبين هذا الرأى ومذهب الرواقية تشابه ملحوظ

(٣) المقابسات ص ٩٢٣

نقصانه ، لأن النقصان بالطبع والكمال بالعرض ، والمنجم بعمله يبارى الله وينازعه علمه ويتتبع غيبه[١] .

ولكن مؤيديه يقولون إن من نظر فى هذا العلم وفكر فى سمة هذه الأفلاك وسرعة دورانها ، وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها ، وأقسام هذه البروج وغريب أوصافها ، تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك[٢] والنظر إلى مافيه ، وليس هذا ممكنا بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، ولكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شىء من سوء أفعالها أو فساد آرائها ، استطاعت أن تصعد فى لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت فلك القمر سائحة فى قمر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة تارة من الكون إلى الفساد ، وتارة من الفساد إلى الكون ، وفى أقوال الأنبياء والحكماء مايشهد بما نقول[٣] . والنظر فى هذا العلم يعين على الترقى إلى ماهو أشرف وأجل ، فهو ينبه النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة[٤] .

وقيل فى مهاجمته إن أحكامه وإن لم تبطل من أساسها ، فإنها لا تصح بأسرها ، وليس هذا بالهين اليسير[٥] ، وصحتها وبطلانها تتوقف على آثار الفلك ، وقد يقتضى

---

(١) المصدر السالف ص ١٣٣

(٢) أطلق العلماء كلمة العالم على كل ما فى الوجود من كائنات ، وما يتصل بها من صفات وقالوا انه ينقسم إلى عالم الأفلاك أى العالم العلوى وإلى عالم الكون والفساد أى العالم السفلى أو هو عالم الأركان أو العناصر الأربعة من هواء ونار وماء وتراب أعلى سطح الفلك المحيط إلى منتهى مقعر سطح فلك الأثير (فلك القمر) ثم ما يلى الهواء ، وأما عالم الأركان من مقعر سطح فلك القمر إلى منتهى الأرض — وفوق الفلك تقوم النفس الكلية التى تسرى قواها فى أجسام العالمين جميعا — انظر إخوان الصفا ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠

(٣) إخوان الصفا ج ١ ص ٩١ وما بعدها .

(٤) إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٧ وكرر هذا بألفاظه فى باب السحر ج ٤ ص ٣٢٣ ..!

(٥) المقابسات ص ١٢٦

شكل الفلك فى زمان ما ، ألا يصح من أحكام النجوم شيء ، وإن غاص أهلها على وقائمها ، وبلغوا إلى أعماقها[١] .

ولكن مؤيديه يقولون إن الصناعة لا تبطل ولا تكون أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطاء فى استدلالاتهم ، فعلم النجوم وأدلته صحيحة وحق ، وإن أخطأ أهله فى بعض استدلالاتهم أو أكثرها ، لأن الله هو الذى نصب الأشخاص الفلكية وأجراها مجاريها ، وقد جعله الله معجزة لإدريس النبى ، « وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالته صحيحة ، وقد يصيب الأطباء ويخطئون فى قضاياهم ، باستدلالاتهم التى نصبوها فى أكثرها ، فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، والأدلة التى نصبها البارى سبحانه وتعالى هى اختلاف حركات النبض وأصباغ البول وتغير أحوال المريض للعلل ، وهكذا أيضاً الفقهاء والحكام ، وأهل الفتوى فى أحكام الدين من الحلال والحرام ، قد يصيبون أو يخطئون فى قضاياهم واستدلالاتهم التى نصبها لهم البارى من آيات كتبه المنزلة . . . فخطؤهم وزللهم لا يبطل العلم والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان بالإنسان لنقصه عن التمام »[٢] .

وإذا كانت المحالات قد اشتدت على هذا العلم فإن ذلك لا يثير الشك فى أمره ، فإن العلماء لا يشكون فى علم وأدب تعلموه ، بقول المنكرين له والجاهلين به ، وكذلك الحال مع كل عاقل ، فإنه لا يترك عقيدته ومذهبه الذى نشأ عليه ، دون أن يتبين بطلانه وينكشف له عواره ، فإن دخول الشبهة على كل إنسان جائز وممكن ،

---

(١) المصدر السالف ص ١٣٤ ــ ١٣٥

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧ ــ ٣٨ وقارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول فى شيشرون (التشابه ملحوظ بين المسلمين والرومان) وقد أكد هذا المعنى فى الفقرة الثانية والثلاثين والخامسة والخمسين من الكتاب الاول .

رغم قيام الحق ووضوحه[١]. وقد كانت أحكام النجوم من أمهات الخلاف بين الناس منذ كانوا ، والعلماء فى حكمها على ثلاثة أقاويل : فمنهم من يرى معتقداً أن للأشخاص الفلكية دلالة على الكائنات قبل كونها فى هذه الأشخاص السفلية ، كما أن لها أفعالا وتأثيرات كذلك ، ومنهم من يسلم بدلالاتها ولا يسلم بفعلها وتأثيرها ، ومنهم من ينفى التأثير والدلالة عنها نفياً قاطعا ، ويقول إن حكمها حكم الجمادات والأحجار المطروحة فى البرارى والقفار ، ولكن مؤيدى النجوم يقولون إن منكرى دلالاتها قد انتهوا إلى هذا لتركهم النظر فى علم الأحكام ، وغفلتهم عن تعلمه وإعراضهم عن البحث فيه ، وأما الذين أيدوا دلالاتها فقد عرفوا هذا من طول التجارب وكثرة الاعتبار فى مرور الأيام والشهور والأعوام الكثيرة ، أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن . وأما مؤيدو دلالاتها وأفعالها فقد اعتبروا النجوم ملائكة له وملوكا لأفلاكه وسكانا لسماواته ، وقد عرفوا ذلك بعد النظر فى العلوم الرياضية ، وإحكامها بعد تعلمها والتدرب عليها بطول الزمان من الدهور والأيام ، ثم ارتقوا إلى معرفة العلوم الطبيعية ومنها إلى العلوم الإلهية ؛ ثم إلى علوم النجوم ونحوه ، وانتهوا إلى تسمية المؤثرات بروحانيات الكواكب فى الكائنات ، والذين ذكروا أن للنجوم مع دلالاتها أفعالا وتأثيرات فى الكائنات التى تحت فلك القمر ، قد عرفوا ذلك بغير طريق أصحاب الأحكام ، وهو طريق الفلسفة الروحانية والعلوم النفسانية والتأييد الإلهى والعناية الربانية[٢] وليس ذلك ببدع فإن علم النجوم جزء من علم الفلسفة[٣] .

---

(١) المصدر السالف ج ٤ ص ٣٧

(٢) إخوان الصفا ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ ، ج ٤ ص ٣٦ — ٣٧

(٣) المصدر السالف ج ١ ص ١٠٨

وقد كان بطلميوس يرى أن التأثيرات المشعة من الأجرام السماوية ، تحمل طبيعة « القابل » مماثلة لطبيعة « الفاعل » وسواء أسلمنا بهذا الرأى ، أم أذعنا لرأى أهل السنة ، فإننا على الحالين مضطرون إلى التسليم بأن الأجرام السماوية لا تكون فاعلة بالحقيقة فى الحوادث ، وإنما هى مجرد دلالات عليها ليس إلا ، وتأثير النجوم مرهون بطبيعة كل منها ، وبموقعها بالنسبة للأرض أو بالنسبة لغيرها من النجوم ، ولهذا تخضع حوادث العالم ، كما يخضع الناس لمزاج من كثير جدا من التأثيرات السماوية المتباينة المختلفة ، المعقدة المتناقضة إلى أقصى الحدود ، وليس عمل المنجم إلا فهم هذه التأثيرات والجمع بينها[١] ، ويقول الكندى إن الله قد صير بعض مخلوقاته عللا لبعضها الآخر ، فالعلة تفعل فى معلولها آثار ما هى لديه علة ، وليس يؤثر المفعول المعلول فى علته الفاعلة ، والنفس علة الفلك لا معلولة له ، فليس يؤثر الفلك فيها أثراً ، إلا أن من طباع النفس أن تتبع مزاج البدن ، إذا لم تجد شيئاً ..[٢]

ولكن المنكرين يردون على هذا قائلين إن أصحاب صناعة النجوم يزعمون أنهم يعرفون الكائنات فى عالم العناصر قبل كونها ، لمعرفتهم قوى الكواكب وتأثيرها فى المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة ، والمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالتجربة ، وهذا أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل فى المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن ، وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره إلى آماد وأحقاب متطاولة ، يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم[٣] .

---

(١) نالينو فى مقاله المشار إليه من قبل .

(٢) قارن مصطفى باشا عبد الرازق فى « فيلسوف العرب » ص ٤٢ — ٣

(٣) ابن خلدون ص ٤٧٨ — ٤٧٩ القنوجى ص ٦٧٤

علم التنجيم بين الإلهام والتجربة والاستدلال :

وذهب بعض مؤيديه إلى أن معارف علم النجوم لاتنال بالعقل أبدا ، ومن بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة[١] للسبب السالف نفسه . ولكن منكريه يقولون إن الضعفاء من المشتغلين بصناعة النجوم يذهبون إلى القول بأن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالوحى ، وقد كفونا مؤنة إبطاله ، فإن من أوضح الأدلة على فساده أن تعلم أن الأنبياء أبعد الناس عن الصنائع ، وأنهم لايتعرضون للأخبار عن الغيب إلا أن يكون وحياً من الله ، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق[٢] .

فأما المتأخرون فيرون أن دلالة الكواكب على أحداث عالم الأركان دلالة طبيعية، من قبل مزاج يحصل للكواكب فى الكائنات العنصرية ـ كما ذهب بطلميوس ومن تبعه من المتأخرين ، فإن مثل النيرين وأثرها فى العنصريات ظاهر ليس فى الإمكان إنكاره ، كفعل الشمس فى تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع ونحوه ، وفعل القمر فى الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة ونحو ذلك، وهو لايعتبر التنجيم من القضاء الإلهى ـ أى القدر ـ إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن ، والقضاء الإلهى سابق على كل شىء ، ذلك مايقوله بطلميوس وأشياعه ، ولكن من الحق أن نقول إن القوى النجومية ليست هى الفاعل بجملتها ، بل تشترك معها قوى

---

(١) الغزالى فى المنقذ من الضلال ص ١٣٨ ـ ١٣٩

(٢) ابن خلدون ص ٤٧٩ والقنوجى ٦٧٤

أخرى فاعلة فى الجزء المادى ، كقوة الأب على التوليد ونحوها ، فإذا عرفنا القوى النجومية عرفنا فاعلا واحدا من جملة أسباب فاعلة للكائن ، ذلك بالإضافة إلى أن العلم بهذه القوى النجومية يقترن به حدس وتخمين حتى يرجح الظن بوقوع الكائن، وليس الحدس من علل الكائن ، وبغيره تصبح الصناعة مثاراً للشك ، وهذا كله على افتراض أن العلم بالقوى النجومية سيقع على سداده ولم تعترضه آفة . والاستدلال يؤدى بنا إلى القول بأن الفاعل هو الله ، وسنعرف حكم الشرع فى إنكار النجوم بعد ؛ وبذلك تنهدم أحكام النجوم عقلا وشرعا ـ فيما يقول ابن خلدون[١] .

وإذا كان من الواضح أن أهل التنجيم يصلون إلى معلوماتهم بالاستدلال والنظر والحدس والعلم بقوى النجوم ونحوها ، كان من البين أن هذا لا يدخل فى مجال الإدراك الغيبى ـ الذى عرفنا أنه لا يجىء اكتسابا أبدا ، وقد بلغ من صدق هذا الظن أن بعض مؤيدى التنجيم قد أعلنوا صراحة بأن المنجم لا يدعى إدراك[٢] الغيب .

وذلك بالإضافة إلى أن القائلين بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر ، وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء ، مثل هؤلاء المنجمين يستندون إلى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثيرات النجومية ـ كما عرفنا الآن ، ويكونون فى غير غيبة من الحس ، ومدارك الغيب لا تكون بغير هذا أبدا[٣] ـ والقول بأن العلم بأحكام النجوم يجىء عن وحى وإلهام إلهى كما قال المتقدمون من أهل هذه الصناعة ، قد وجد من ينكره من أمثال ابن خلدون على نحو ما أشرنا من قبل .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ والقنوجى ص ٦٧٤ ـ ٦٧٥

(٢) إخوان الصفا جـ ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ (٣) ابن خلدون ص ٩٧

وليس ينبغى أن يحتج أهل هذه الصناعة بأن وجودها طبيعى للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم ، فإن الشر والخير طبيعتان قائمتان ليس فى الوسع نزعهما من طبائع الناس ، ولكن هذا لا يمنع من السعى لاكتساب الخير ودفع أسباب الشر[١] ، ولكن قيل إن الزجر عن النظر فى هذا العلم قد ورد لأصحاب النفوس الخبيثة والعقول النيئة ، التى لا يجوز لأربابها أن ينشقوا ريح الحكمة أو يتطاولوا إلى غرائب الفلسفة ، وإباحة النظر إلى هذا العلم والتسليم بما قيل فى حسناته ، إنما ورد من أجل الممتازين فى عقولهم ونفوسهم معاً[٢] . على أنه إذا كان من الممكن — على طريق إجراء العادة — أن يكون بعض الحوادث سبباً لبعضها الآخر ، فليس ثمة دليل على كون الكواكب أسباباً للسعادة وعللا للنحوسة ، لا حساً ولا عقلا ولا سمعاً ولا شرعاً[٣] .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذه فى قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء ، وقد ظل هذا النفوذ قائما حتى القرن الغابر ، حين أتى عليه قيام الحضارة الغربية عامة ومذهب كوپرنيكوس + ١٥٤٣ بوجه خاص ، ومن أجل هذا ظل قائما فى البلاد التى لم تغزها الحضارة الغربية ، وإن افتقد جلاله الذى

---

(١) ابن خلدون ص ٤٨١ والقنوجى ص ٦٧٧

(٢) المقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ١٣٨

(٣) حاجى خليفه ج٢ ص ٣٨١ وقد فصل فيه هذا الرأى ، وردد القنوجى صدى ما يقوله فى ص ٦٧٣ ولعلنا نلاحظ تشابه كثير من أدلة تأييد هذا العلم وإنكاره معا فى موقف أنصاره من الرواقية وخصومه من أتباع الأكاديمية الجديدة كما يظهر فى كتاب شيشرون بقسميه الأول والثانى .

كان له فى العصور الوسطى ، ومن هنا نلاحظ أن قضاة اليمن لا يزالون — فيما يذكر نللينو — يزاولون صناعة أحكام النجوم إلى يومنا الحاضر[١] .

وفى الآثار الإسلامية وفرة من الأدلة تشهد بتسلل التنجيم إلى قصور الخلفاء ، وأثره الملحوظ فى تدبير الشئون العامة والخاصة ، سياسية أو اجتماعية أو غيرها :

التنجيم فى قصور الخلفاء :

يقول ابن خلكان — فى وفيات الأعيان — أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ، استدعى منجما وقال له : هل ترى فى علمك ملكا يموت ؟ قال المنجم نعم ولست هو ، لأن الذى يموت اسمه كليب ، قال الحجاج إنه أنا والله ، « بذلك سمتنى أمى » وكتب وصيته[٢] .

وقد كان جعفر المنصور — ثانى الخلفاء العباسيين — يدنى المنجمين من حضرته ، ويستشيرهم فى أموره ، وكان نَوْبَخْت الفارسى[٣] يصحب المنصور ، ولما ضعف عن خدمته طلب إليه هذا إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسَيَّر له ولده أبا سهل . ويروى المؤرخون — أمثال ابن أبى أصيبعة وأبى الفرج والقفطى — أن المنصور لما حج حجته التى توفى فيها ، رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين همّ ببناء بغداد (١٤٥ هـ) وضع أساس المدينة فى وقتٍ اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله بن سارية ، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا فى حصرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزارى والطبرى

---

(١) نللينو فى مادة التنجيم المشار إليها من قبل .

(٢) ولكن نللينو يرفض التسليم بهذه القصة — كما أشرنا من قبل — لأنها لم ترد فى كتب التاريخ المفصلة ، ولأن التنجيم لم يكن معروفا عند المسلمين فى هذا العهد (أنظر نللينو : علم الفلك ص ٣٢١)

(٣) يقول المسعودى فى مروج الذهب (ج ٨ ص ٢٩١ طبعة أوربية) إنه كان مجوسيا وأسلم على يد المنصور .

من المنجمين[١] . وروى البيرونى أن ابتداء البناء كان فى الخامس والعشرين من ربيع الثانى ١٤٢ للهجرة ، وأن نوبخت هو الذى تولى اختيار الوقت الملائم ، وأن هيئة الفلك فى ذلك الحين قد اتفقت على مثل هذا الشكل .

وقد روى أبو معشر المنجم ، عن ابن منصور وفئة من أقرانه فى التنجيم ، أن المأمون قد طلب إليهم أن يأخذوا طالعا لدعوى إنسان ، ومعرفة مدى الصدق فى دعواه ، فأحكموا طالعه وصوروه ، فوقعت الشمس والقمر فى دقيقة واحدة فى الطالع ، والطالع الجدى والمشترى فى السنبلة ينظر إليه .. !! فقال جماعتهم إن ما يدعيه صحيح ، وقال ابن منصور : « إن تصحيح الذى يطلبه لا يصح ولا يتم له ولا ينتظم ... لأن صحة الدعاوى من المشترى أو تثليث الشمس من تسديدها ، إذا كانت الشمس غير منحوسة ، وهذا الحال هبوط المشترى ، والمشترى ينظر إليه نظر موافقه ، إلا أنه كاره لهذا البرج ، والبرج كاره له ، ولا يتم التصحيح والتصديق ، والذى قالوا من حجة زهرية عطاردية ضرب من المخرقة والتزويق والخداع ، فأثنى عليه المأمون وأنبأهم بدعوى الرجل فى النبوة ، وما زال به حتى كف عن دعوته[٢] .

على أن كتب التاريخ تشهد بأن الخلفاء والحكام لم يكونوا على اتفاق بصدد الاعتقاد فى صدق المنجمين ، فالمسعودى يروى عند وصف وقعة مسكن بين عبد الملك ابن مروان ومصعب بن الزبير عام ٧٢ هـ ، أن الأول كان معه منجم مقدّم ، وقد أشار على عبد الملك ألا يحارب له خيل فى ذلك اليوم ، فإنه منحوس ، وليكن حربه بعد ثلاث ، يُصِبْ نصرا ، فبعث محمد إلى أخيه عبد الملك يقول « وأنا أعزم على نفسى

---

(١) اليعقوبى فى البلدان ص ٢٣٨ طبعة ليدن الثانية عام ١٨٩٢ م

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٢٥ — ٦

لأقاتلن ولا ألتفت إلى زخاريف منجمك ، والمحالات من الكذب ، فقال عبد الملك للمنجم ولمن حضره ، ألا ترون ! ثم رفع طرفه إلى السماء وقال اللهم إن مصعبا أصبح يدعو إلى أخيه وأصبحت أدعو لنفسى ، « اللهم انصر خيرنا لأمة محمد » واقتتل محمد وأبلى ولكنه قتل[١] ...!

وإذا كان نللينو يأبى التسليم بهذه القصة[٢]. استناداً إلى رأيه السالف الذكر ، فإن مجرد رواية المسعودى لها ، تحمل الدلالة على أن التنجيم لم يكن موضع تسليم وإذعان عند الجميع .

فروع التنجيم :

حسبنا هذا مما قيل فى علم أحكام النجوم ، وقد فرعه بعض مؤرخيه إلى علم الاختيارات ، والرمل والقرعة والطيرة[٣] ولا يسلم بعضهم بهذا التفريع .

وشبيه بعلم النجوم فى زعم أصحابه ، إدراك الغيب عند أهل الرمل الذى استنبطه لذلك قوم من العامة ، وأقاموه على أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ، ونسبوه إلى النبوات القديمة (دانيال أو إدريس) . ثم أهل حساب النيم الذين زعموا أنهم يعرفون عن طريقه الغالب والمغلوب فى الحروب ، ثم أصحاب الزايرجه ـ ولا سيما تلك التى تنسب إلى محمد السبتى ، من أعلام متصوفة المغرب فى أواخر المائة السادسة ، ولا ينكرها بعض المفكرين ـ استناداً إلى ما فيها من تناسب ، هو السر فى الحصول على المجهول من المعلوم كما يحدث عند أهل الرياضة ، ولهذا نسبت إليهم ، ولكن

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٥ ص ٢٤٤ ـ ٦ طبعة أوربية .

(٢) نللينو : علم الفلك ص ٣٣١

(٣) ابن خلدون ص ٩٧ وقد فرعه « القنوجى » إلى مثل ما أسلفناه .

الذين يقولون هذا يأبون اعتبارها — وغيرها مما سلف الآن — من أدوات الإدراك الغيبي ، لأن الغيب لا يدرك صناعة وبضاعة كما قلنا من قبل[١] .

وقد أورد « لين » Lane صورة زايرجة يستخدمها المسلمون عند التردد في الإقدام على عمل أو الإحجام عنه ، وتتلخص في مربع يرسم ويقسم إلى مائة خانة صغيرة ، يكتب في كل منها حرف من الحروف كيفما اتفق ، وقبل الإقدام على استفتائها يقرأ الإنسان الفاتحة ، ويعقب عليها بالآية التاسعة والخمسين من سورة الأنعام « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ... » ثلاث مرات ، ثم يضع أصبعه عفواً على إحدى خانات الجدول ، ويسجل الحرف الذي يقع عليه أصبعه ، ثم يدون الحرف الخامس الذي يليه ، ويكرر تدوين كل خامس حرف يجيء بعد ذلك ، حتى يصل إلى الحرف الذي بدأ به ، ومن مجموع هذه الحروف — الخوامس — وهي عددها بالطبع عشرون ، يتألف الجواب ..! وقد أجرى « لين » هذه التجربة في جدول في كتابه ، واستخلص جوابا معقولا ، ولكني أجريت هذه التجربة بنفس الطريقة التي رسمها ، فكان مجموع الحروف بترتيبها السالف ، لا يحمل معنى معقولا .. !! ويقول « لين » إن أحب الزايرجات عند المسلمين أكثرها تعقيدا ، وأن عملياتها تعتمد على حساب أحكام النجوم[٢] .

لعل من الخير ألا نفرع من الحديث عن أساليب التنبؤ دون أن نعرض في شيء من الإيجاز لموقف مفكري الإسلام من علمي الفراسة والسحر ، لأن كليهما قد تشعب عند بعض أهله ومؤرخيه حتى شمل التكهن بالغيب ، وقد عنى المسلمون بهذين العلمين تأييداً وإنكارا ، ولهذا لزم الحديث عنهما معا :

---

(١) ابن خلدون ص ٤٨١ والقنوجي ص ٦٧٧

(2) E. W. Lane, Modern Egyptians p. 266-7

— ٥ —

علم الفراسة وأشباهها

اعتبر بعض المؤرخين[١] العرافة من فروع الفراسة ، ويكاد ينعقد الرأى على أن العرافة قد سخرت لمعرفة الغيب ، وإن رفض جمهرة رجال الشرع ومن ذهب مذهبهم التسليم بصحتها ، واعتبر البعض الكهانة من فروع العرافة ، كما أسلفنا الإشارة من قبل ، وإذا تخطينا الاضطراب فى التصنيف والتفريع عند هؤلاء المفكرين ، لاحظنا أن بعض كبار أهلها ومؤرخيها يوسع فى نطاقها حتى تشمل التكهن بالغيب ـ كما سنعرف الآن .

ماهيتها وآثارها :

والأصل فى الفراسة أنها العلم الذى يستعين بما ظهر من أحوال الناس وهيئتهم من ألوان وأشكال وأعضاء ـ على معرفة ما خفى من أخلاقهم وطباعهم ، أو هو فى الجملة الاستدلال بالخُلُق الظاهر على الخُلْق الباطن[٢] وبرروا وجوده بقولهم إن المزاج إما أن يكون النفس أو آلة لها فى أفعالها ، وعلى كلا التقديرين السالفين لابد أن يكون الخلق ـ ما ظهر منه وما بطن ـ تابعا للمزاج ، وإن صح هذا كان الاستدلال بالخُلُق الظاهر على الخُلْق الباطن ، جاريا مجرى الاستدلال بحصول أحد المتلازمين على

---

(١) القنوجى ، أبجد العلوم ج ١ ص ٤٠

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٣ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٧٢ والقنوجى ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧

حصول الآخر ، ولا شك أنه نوع من الاعتبار صحيح ، ويؤيده الكتاب والسنة والعقل جميعا ، على نحو ما أبان أهل العلم ومؤرخوه[١] .

تفريع الفراسة :

ولكن بعض مؤرخيه قد شطروه شطرين : أحدهما يحصل بالتجربة التى دلت على أن الظاهر ينبئ عن الأخلاق الباطنة[٢] ، فهو علم يقينى الأصول ظنى الفروع[٣] وثانيهما الفراسة الشرعية التى تحصل بنور اليقين بوساطة تزكية النفس عن الأخلاق الرديئة ، وتصفية القلب عن الصفات الذميمة ، حتى ينظر بنور الله فيكون الله بصره وسمعه ، إن الله لا يخفى عليه شىء لا فى الأرض ولا فى السماء[٤] ، وفى هذا النوع من الفراسة يقع فى القلب خاطر يحدد حال الإنسان وصفته ، دون الاستعانة بعلامة جسمانية أو إشارة محسوسة ، والسبب فيه ما ثبت من أن جواهر النفوس الناطقة مختلفة بالماهيات ، فمنها ما يبلغ غاية الإشراف والتجلى عن العلائق الجسمانية ، ومنها مالا يكون كذلك ، وكما أن النفس تقوى على معرفة الغيوب إبان النوم ، فكذلك النفس المشرقة الصافية قد تستطيع معرفة الغيب حال اليقظة ، وتختلف مثل هذه النفوس كمّا وكيفا[٥] وهكذا تسللت الفراسة إلى ميادين التكهن بالغيب ، وأيدوها

---

(١) فخر الدين الرازى فى كتابه الفراسة ص ٤ — ٦ (وقد نشره زميلنا الدكتور يوسف مراد مع ترجمته إلى الفرنسية والتمهيد له بمقدمة علمية قيمة) وفى التهانوى جـ ١ ص ٤٤ ، وج ٢ ص ١١٢٣ عرض للرأى السالف فى صلب الكلام .

(٢) طاشكبرى زاده جـ ١ ص ٢٧٣ (٣) الرازى ص ٧

(٤) طاشكبرى زاده جـ ١ ص ٢٧٣

(٥) الرازى فى الفراسة ص ٦ ، والتهانوى فى كشافه جـ ٢ ص ١١٢٣

بآيات الله وأحاديث الرسول وشواهد العقل ، وقد قال النبي اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وقوله كان قبلكم من الأمم محدثون ، فيـــه إشارة إلى الفراسة الطبيعية ـ وهي التي فطر الله النفوس عليها ، فالفراسة الشرعية هي معاينة المغيبات بالأنوار الربانية ، فمن راقب أحواله وأنفاسه ، وتجنب المعاصي ـ ما صغر منها وما كبر ، وتخلق بالأخلاق النبوية وتحلى بالآداب المصطفوية ولم ير خيرا ولا شرا ولا نفعا ولا خيرا إلا من الله ... كانت فراسته كالشمس تسطع أنوارها ، ولم ينطق إلا صدقا وحقا[١] وعلى هذا فمن معاني الفراسة اطلاع القلب على مجاهل الغيب بنور من الله[٢] وهذا اتجاه صوفي في تفسيرها[٣] وعلى هذا فالفراسة إما أن تكون قائمة على ماظهر من أحوال البدن ، ويجرى في هذا النوع التعليم والتعلم ، وإما أن يقوم الحكم فيها على مجرد القوة الحدسية ، وتلك هي فراسة الأنبياء وأكابر الأولياء[٤] .

قيل أن رسول الله يقول : « كان فيمن قبلكم محدثون وأنه لو كان أحد فعمر ابن الخطاب ، والمحدث المصيب في ظنه وفراسته كأنه حُدِّث بالأمر ـ فيما يروى طاشكبرى زاده[٥] أو هو الملهم الذي يلقى في نفسه الشيء فيخبر به حدسا وفراسة فيما يقول ابن الأثير[٦] . وقد كان عمر يقول « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » وتروى في أمر فراسته روايات « قد يصدق منها القليل ، وتتسرب المبالغة إلى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها ، وهي أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة » فمن ذلك أنه أبصر أعرابياً نازلا من جبل ،

---

(١) طاشكبرى زاده ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ (٢) التهانوى جـ ٢ ص ١١٢٣

(٣) في الرازى ص ٧ وفي التهانوى جـ ٢ ص ١١٢٣ ما يؤيد هذا

(٤) الرازى ص ٧ ولم يعن الرازى في كتابه إلا بالصنف الاول وقد شرح فيه كل مالا بد من معرفته . (٥) مفتاح السعادة جـ ١ ص ٢٧٢

(٦) النهاية في غريب الحديث جـ ١ ص ٢٤٠

فقال هذا رجل مصاب بولده ، قد نظم فيه شعراً لو شاء لأسمعكم ، ثم سأل الأعرابى: من أين أقبلت ؟ فقال من أعلى الجبل ، فسأله : وما صنعت فيه ؟ قال أودعته وديعة لى، قال وما وديعتك ؟ قال بنى لى هلك فدفنته، قال فأسمعنا مرثيتك فيه ، فقال وما يدريك يا أمير المؤمنين ، فوالله ما تفوهت بذلك ، وإنما حدثت به نفسى ؛ ثم أنشد أبياتاً ختمها بقوله :

فالحمد لله لا شريك له ... فى حلمه كان ذا وفى قدره

موتاً على العبـــاد فما ... يقدر خلق يزيد فى عمره

فبكى عمر حتى بل لحيته ثم قال : صدقت يا أعرابى ..![1]

ومثل هذا يقال فى أبى بكر الصديق، وقد روى عنه صاحب «اللمع فى التصوف» شواهد تنبئ بصدق فراسته[2] .

والحديث عن الفراسة ، يجرنا إلى الحديث عن طرق أخرى لإدراك ضروب من الغيب ، إذ اعتبرت هـذه الطرق عند بعض المؤرخين من فروع الفراسة[3] ، وإن رفض بعضهم التسليم بذلك[4] ، ولنبدأ بالحديث عن :

قيافة الأثر والبشر :

وتسمى قيافة الأثر بالعيافة أحيانا ، وهى القدرة على معرفة الهراب من الناس ، والضوال من الحيوان بتتبع آثار أقدامها وأخفافها وحوافرها فى الطرق القابلة للأثر،

---

(١) العقاد : عبقرية عمر ص ٣٤ وقد ذكر له مثالين آخرين .

(٢) أبو نصر السراج الطوسى : اللمع فى التصوف ص ١٢٣ من نشرة نيكلسون .

(٣) كالقنوجى فى أبجد العلوم ج ١ ص ٤٠ (٤) الرازى ص ١١ ــ ١٧

ويكون هـذا بقوة القوة الباصرة والمتخيلة والحافظة[١] . وأما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الإنسان على الاشتراك فى النسب والولادة وسائر وجوه الأخلاق والأحوال ، وقد اشتهر فى هذا العلم بنو مدلج وبنو لهب ، وهو يعتمد على قوة القوة الباصرة والحافظة ، فينشأ عن طبيعة فى أصحابه ، ولا يجىء تعلما واكتسابا ، ومع هذا فهو حدس وتخمين ، لا استدلال ويقين ، وإذا كان الشافعى قد سلم به ، فإن أبا حنيفة قد أنكره[٢] .

نماذج من قيافة الأثر :

وقد روى المسعودى أن بين أرض مصر والشام ، قوماً من العرب يتناول الإنسان من ثمر نخلهم ، فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه ، فإن رأوه بعد مدة عرفوا أنه الآخذ لثمرهم ، ولا يكادون يختلفون فى ذلك ..! وقد قَفَتْ القافة بقريش حين خرج النبى وأبو بكر إلى الغار حتى أتت بابه ، على حجر صلد وصخر أصم وجبال عالية لا رمل عليها ولا طين ولا تراب تظهر فيه الأقدام ، حجبهم الله عن نبيه بما كان من نسج العنكبوت وما سفت إليه الرياح[٣] ، وحار القائف وقال ها هنا تنتهى الأقدام ، والذين معه « لا يرون على الصلد مايرى ولا على الصوان مايشاهد ، وأبصارهم سليمة والآفات عنها مرتفعة والمواقع زائلة »[٤] .

---

(١) الرازى : الفراسة ص ١٢ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٩ والقنوجى ص ٥٤٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ٤٤ والأبشيهى ج ٢ ص ١٠١ وما بعدها

(٢) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٢٥ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٠ـ١ والرازى ص ١٢ـ ١٣ وانظر الابشيهى ج ٢ ص ١٠١ وما بعدها .

(٣) التمس تحقيق ذلك فى حياة محمد للدكتور هيكل باشا ص ٢٠٨ طبعة ثانية والابشيهى ج ٢ ص ١٠١ ـ ٢ (٤) المسعودى : ج ٣ ص ٣٤٢ ـ ٤ طبعة أوربية .

وقيل إن أولاد نزار بن معد الأربعة كانوا فى طريقهم إلى ملك نجران ، فرأوا أثر بعير فى مغارة ، فقال أحدهم إنه لأعور ، وقال ثانيهم إنه لأبتر ـ مقطوع الذنب ـ وقال ثالثهم إنه لأزور ـ معوج الصدر ـ وقال رابعهم إنه لشرود..! ثم لقيهم صاحب البعير وسألهم عنه ، فكرر كل منهم الوصف الذى ذهب إليه من قبل ، وأيقن الرجل بصدق ما قالوا ، فطلب إليهم أن يدلوه عليه ، فقالوا : والله ما حسسنا لك ببعير ولا رأيناه..! فتبعهم الرجل حتى إذا بلغوا الملك، صاح الرجل من وراء الباب : أيها الملك لقد أخذ هؤلاء بعيرى ، ثم أقسموا بأنهم لم يروه ، فدعا به الملك وسأل ضيوفه عن أمره ، فقال الأول رأيت البعير مجتهداً فى رعى الكلأ من شق لحسه ، والشق الآخر واف كثير الالتفاف لم يمسه ، فقلت إنه أعور . وقال الثانى رأيته يرمى ببعره ـ رجيعه ـ مجتمعا ، ولو كان ذا ذيل لفرق هذا الرجيع بتحريك ذنبه ، فقلت إنه أبتر، وقال الثالث رأيت أثر إحدى يديه ثابتا والآخر فاسدا فعلمت أنه أزور . وقال الرابع: رأيته يرعى الشقة من الأرض ثم يتعداها فيمر بالكلأ الملتف الغض فلا يأخذ منه ، حتى يأتى ما هو أرق فيرعى فيه ، فعلمت أنه شرود..! فقال الملك صدقتم ، وقال للرجل التمس بعيرك[1] .

قيافة البشر :

أما الآخذون بقيافة البشر ، فيقولون إن الأشباه تنزع ، ولا يجوز أن يمنع التشابه بين الولد وأبيه أو أحد من أهله ، من جهة من الجهات ، وقيل إن فى الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها[2] ، ومن هنا كان نظر القائف إلى

---

(١) المسعودى ج ٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٢ طبعة أوربية وقد عقب بذكر قصة أخرى يبين فيها صدق الفراسة عند هؤلاء . (٢) المصدر نفسه ص ٢٣٣ وانظر القنوجى ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧

القدم ، لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة ، وقد يخالف الولد أباه فى كنه أفعاله ومظاهر خَلْقه ، ولكنه فى الأغلب يوافقه فى القدم[١] .

ومن الأمثال التى ترد فى معرض الحديث عن الاستدلال بتركيب الإنسان على أخلاقه، أن تلامذة سقراط — فيما يقول صاحب تاريخ الحكماء — قد أرادوا أن يختبروا فراسة أقليمون ، فقدموا إليه صورة دقيقة رسموها لأستاذهم ، فلما تأملها وأمعن فيها، قال — وهو لا يدرى لمن هى — هذه صورة رجل يحب الزنا ، قالوا كذبت ، فإنها صورة بقراط ، فقال لابد لعلمى أن يصدق فاسألوه ، فلما رجعوا إلى أستاذهم قال صدق أقليمون ، فإنى أحب الزنا ولكنى أملك نفسى وأضبط مابى من هوى جامح[٢] .

ولكن هذا العلم مثار للشك عند بعض المفكرين ، لأن الناس يتشابهون فى حد الإنسانية ونحوه من الحدود ، ويفترقون فى غير هذا من الصور ، وليس وجود الأغلب من الأشباه ، مما يوجب إلحاق الشبه بشبهه ، دون أن يخالف ، من حيث أوجبته قضية العقل للخلاف والتباين ، والذين أذعنوا للتسليم بقيافة البشر من أهل الشريعة وفقهاء الأمصار ، استندوا إلى تعجب النبى منها ، وتصديقه محرزاً المدلجى ، والذين أنكروها من فقهاء الأمصار ، استندوا إلى الدلائل الدالة على فساد الحكم فيها ، وعلى أن النبى ألحق ولداً بأبيه مع عدم التشابه بينهما ، وبحجة أن العرق قد ينزع ، وأنباء الإبل تشهد بصحة ذلك[٣] .

---

(١) المسعودى ج ٣ ص ٢٣٨

(٢) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٢٥ — ١٢٦ والقنوجى ٥٨٦ — ٧

(٣) المسعودى ج ٣ ص ٣٣٣ — ٥

أشباه الفراسة :

ويدخل فى هذا الباب محاولة استكناه الأعمار فى طولها أو قصرها ، وما ينتظر الإنسان من سعادة أو شقاء ، وثواء أو عدم ، من الدلالات التى تحملها الخطوط الفائمة فى الأكف والأقدام والجباه ، استناداً إلى مابينها من تقاطع وتباين وطول وعرض وقصر ، وما يفصل بينها من فُرَج متسعة أو ضيقة ، ويسمون هذا بعلم الأسارير[١] . ومعرفة أحوال العالم الأكبر من حروب وخصب وجدب ، من خلال الخطوط والأشكال التى ترى فى أكتاف الضأن والمعز إذا قوبلت بشعاع الشمس ، ويسمون هذا بعلم الأكتاف . وقلما يحرص أهله على معرفة الأحوال الجزئية لإنسان بالذات ، ولكنهم يحاولون معرفة مايعتور العالم من غلاء ورخاء وحروب ونحوها ، بأخذ ألواح الكتف قبل طبخه ، وإلقائها على الأرض أولا ، ثم النظر فيها والاستدلال بأحوالها من الصفاء والكدر والحمرة والخضرة على الأحوال الجارية فى العالم . وقد ردَّ البعض هذا العلم إلى الإمام على بن أبى طالب[٢] ، ولكن مثل «على» فى تقواه وفضله ، وورعه وذكائه ، لايشتغل بمثل هذه العلوم ، وقد نهى وشدد النهى عن استطلاع الغيب بمثل هذه الأساليب[٣] ، ومن قبيل هذا علم الاختلاج الذى يبحث فى كيفية دلالة الاختلاج فى أعضاء الإنسان ـ من الرأس إلى القدم ـ

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٨ والقنوجى ٣١١ والرازى ص ١١

(٢) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٨٩ وحاجى خليفة ج ١ ص ١٠٤ والرازى ص ١٢

(٣) وما أصدق العقاد حين يقول فى التعقيب على نسبة علم الجفر إلى الإمام على « ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها ، هى من مدخول الكلام عليه وفى إضافة الناسخ إلى الكتاب بعد وقوع الحوادث بزمن قصير أوطويل » (عبقرية الإمام ص ١٧٧ طبعة أولى) .

على ما ينتظر أن يصيبه من خير أو شر ، وإن كان عند مؤرخيه علما لا يوفق فيه لضعف دلالته وغموض استدلاله[١] .

وقد اقتضت حياة الترحال عندهم ، التعرف إلى أحوال الأمكنة ـ من غير دلالة على هذا ـ بالأمارات السماوية تارة والأرضية أخرى (كشم رائحة التراب فى كل بقعة) وأطلقوا على هذا علم الاهتداء بالبرارى والقفار ، فساعدهم هـذا على تسيير القوافل على هدى وبصيرة من غير تيه أو ضلال[٢] .

ومن قبيل هذا معرفة استنباط المياه من الأرض عن طريق الأمارات الدالة على وجودها ، ومن قربها أو بعدها ، بشم رائحـة تراب منها أو رؤية نبات أو حيوان معين ، ويكون هذا بتوافر الحس الـكامل والتخيل القوى ، وقد أطلقوا على هذا علم الريافة[٣] . ويشبه هذا علم الاختيارات[٤] الذى ينصب على البحث فى أحكام كل وقت وزمان من الخير والشر ، ويحدد الأوقات التى ينبغى الاحتراز فيها عن مزاولة الأمور أو يستحب فيها الإقدام عليها[٥] . ومثل هذا يقال فى علم القرعة[٦] وعلم نزول الغيث . وعلم الشالآت والخيلان والجفر والجامعة والزايرجه والرمل وغيرها[٧] وحسبنا الآن أن نشير إليها موجزين . وسنعود إلى التعليق على هذه العلوم ونماذجها السالفة عندما نعرض إلى بيان موقفنا من التـكهن الصنعى .

---

(١) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦ والقنوجى ص ٢٩٤

(٢) طاشكبرى زادة ج ١ ص ٢٩١ وحاجى خليفة ج ١ ص ١٣٤ والقنوجى وغيره

(٣) الرازى ص ١٥ وكذلك حاجى خليفة ج ١ ص ٤٥٢ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٢ وانظر فى المصدر الأول ص ٧٣ والقنوجى ٣٥٢ فى استنباط الميـاه والمعادن

(٤) اعتبره ابن خلدون فى مقدمته ص ٩٧ والقنوجى ص ٤٠ من فروع النجوم .

(٥) طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٦ والقنوجى ص ٢٩٥

(٦) التهانوى ج ٢ ص ١١٩٩ وحاجى خليفة ج ٢ ص ١٠٦ وطاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٩٩ والقنوجى ص ٥٨٤

(٧) تنظر فى هذه العلوم طاشكبرى‌زاده وحاجى‌خليفة والقنوجى والرازى والتهانوى وغيرهم

— ٦ —

علم السحر

أدرك الاضطراب تعريف السحر وتحديد آفاقه ـ كما أدرك الفراسة من قبل ـ واتسع معناه عند البعض حتى شمل ميادين التكهن بالغيب ، رغم أن مؤرخيه ليسوا على اتفاق فى تحديد موضوعه :

موضوعه :

تبدو مظاهر هذا الاختلاف فى تعريف السحر عند باحثيه ، فأما أهل الفقه فقد نظروا إليه باعتباره عملا يتقرب به المرء من الشيطان ، ومعرفة تفاد من الجن ، وأما الحكماء فالأرجح عندهم أنه الإتيان بخارق ، عن مزاولة قول أو فعل محرم فى الشرع ، أجرى الله سنته بحصوله ابتلاء[1] ، وفى هذا الاتجاه روح إسلامى واضح ، والواقع أن الفلاسفة قد أقاموا السحر وحددوا آفاقه بشكل أوضح من هذا ، إذ قالوا إن السحر والطلسمات من آثار النفس البشرية ، ودللوا على صحة هذا بأن للنفس آثاراً فى البدن تجرى على غير المجرى الطبيعى المألوف ، وتسير على غير أسبابه الجسمانية ، وقالوا إن الساحر لا يحتاج إلى معين لكى يؤثر فى غيره — كما هو الحال فى صاحب الطلسمات ، والسحر اتحاد روح بروح ، وليس ائتلاف روح بجسم

(١) التهانوى فى كشافه ج ١ ص ٦٤٨

— كالطلسم — وهو — السحر — عند الفلاسفة فطرى لا يجىء اكتسابا ، إن صاحبه مفطور على تلك الجبلة الخاصة بذلك النوع من التأثير[١] .

ولكن بعض المفكرين قد وسّع معناه حتى شمل آفاقا جديدة غير الآفاق التى أسلفناها ، فقالوا إن من السحر ما هو بيان وكشف عن حقيقة الشىء ، وإظهاره بسرعة العمل ودقته ، « ومنه الإخبار بما يكون قبل كونه ، والاستدلال بعلم النجوم وموجبات أحكام الفلك[٢] » . فاعتبروا النجامة سحرا ، وقال بعضهم إن الساحر قد يقوم بإخبار نبى بعينه ، فيبعث النبى حياً يجيب عما يسأل عنه من شئون الغيب ، وتشهد بهذا قصة « طالوت » ملك اليهود ، ونبيهم « شمويل » الذى بعثه الساحر حياً وأنبأ الملك عن عاقبة أمره ، وغضب الله على بنى إسرائيل[٣] .

ذلك أن أهل فلسطين قد ساموا اليهود الهوان ألوانا ، حتى إذا كان نبيهم « شمويل » — صمويل — استوحى الله فى اختيار ملك يتولى قيادتهم فى قتال أعدائهم ، فكان « طالوت » فأذعنوا لطاعته بعد تردد ، فتخير منهم من لا تشغله شئونه الخاصة عن محنة القتال ، ومضت هذه القلة تحت رايته إلى ملاقاة الأعداء ، الذين كثر عديدهم حتى أثار الفزع فى قوم طالوت ، ولكن الله أجاب دعاء هؤلاء وهيأ لهم النصر المبين على القوم الكافرين[٤] ، وكان مصرع كبير أعدائهم «جالوت» على يد — داود عليه السلام — مع حداثة سنه وقماءة جسمه ، ولكن طالوت

---

(١) ابن خلدون ص ٤٣٧ — ٤٣٨ وقد فصل الحديث فيما أجملناه .

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٤٧ (٣) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٣٠

(٤) اقرأ هذه القصة بالتفصيل فى التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازى ج ٢ ص ٢٩٣ — ٣٠٤ فى تفسيره للآيات ٢٤٦ — ٢٥١ من سورة البقرة (طبعة مصر الأولى عام ١٣٠٨ هـ)

فيما تقول كتب الأخبار التى تجرى مجرى التوراة عند اليهود — لم يرع الله فى معاملة المغلوبين ، نخفّ هؤلاء لقتاله ، وأزعجته كثرة عددهم ، فطلب إلى خاصته أن يأتوه بساحر يسأله عن عاقبة أمره — وكان شمويل قد قضى نحبه — فجاءوه بساحرة اطمأن إليها وسألها أن تحيي له نبياً ، فسألته أى الأنبياء يختار ، فاختار « شمويل » فبعثه حياً ..! ولكنها فزعت عند رؤيته وارتاعت ، فسألها « طالوت » عمن رأت ، فقالت إنه شيخ بهى « مثل ملائكة الرب ، مشتمل ببرنس قد صعد من الأرض . فأدرك طالوت أنه شمويل ، فدخل إليه وسجد بين يديه » ، فقال شمويل يا طالوت لمَ أرجعتنى وأحييتنى ؟ قال لما ضاقت بى الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياى ، وزوال عناية الله عنى ومنعه الأحلام منى ، دعوتك لأستشيرك فى أمرى ، فقال شمويل إن الله تعـــالى قد نقل الملك إلى صاحبك داود ، وغضب عليك وعلى بنى إسرائيل ، جزاء ظلمكم للعماليق وقتلكم مواشيهم ، وسيكفل النصر لأعدائكم ، ثم خر منشياً عليه ، فعرفته الساحرة ومن كان معها ، فأقبلوا عليه حتى أفاق وأضافهم ليلتهم وانصرفوا مصبحين ، ولما التحمت الحرب ، حطت الهزيمة على العبرانيين ، وكثر القتل فيهم « وقتل طالوت ثلاثة بنين وانكأ هو على حربته فأخرجها من ظهره ، فاجتمع بنو إسرائيل على تمليك داود ، فدافع بهم من ناوأوهم[1] .

ويعمم إخوان الصفا مدلول السحر حتى يشمل الأنبياء ، فمن السحر فى رأيهم ما اختص به الأنبياء والحكماء ، ومنه ما اقتصر العلم به على النساء والعرب ، وقد سمى الأنبياء فى الأمم الخالية سحرة ، لأنهم أظهروا من المعجزات الباهرات ما حيّر الألباب ، كما سمى الحكماء قديما بالسحرة لأنهم كانوا يخبرون بالكائنات ، فيتكلمون

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٣٠ — ٣٣١

بالإنذارات والبشارات بما يكون فى العالم من السرور والخيرات ونزول البركات والنعمات ، فنسبوهم إلى الكهانة لما عميت عليهم الأنباء ، ولم يعرفوا النبوة والأنبياء عليهم السلام ، وزعموا أن لهم أصحابا من الجن يأتونهم بأخبار السماء فيعلمون بذلك ما كان وما يكون » « وفى آيات القرآن ما يشهد بصحة ما نقول ، مع أن سحر الأنبياء يشبه العلم بالأمور التى ليس فى وسع البشر العلم بها ، إلا عن طريق الوحى والتأييد الإلهى ، وأخذها عن الملائكة ، وعن هذا يجىء الإخبار بالغيب بما كان وما يكون ، ولهذا كانت الجاهلية تقول عمن اعتنق الإسلام إنه قد صار إلى دين محمد، وقد عمل فيه سحره ، وثمة سحر باطل يقوم على تنميق الباطل وإنكار الحق وإدخال الشكوك على المستضعفين حتى يصدوا عن دين الله[١] . وقد شمل السحر النجامة والكهانة أيام موسى[٢]، مع أن النجامة كانت فى الجاهلية تشمل الزجر والكهانة[٣].

مكان السحر فى مجال الإدراك الغيبى :

حسبنا هذا إجمالا للسحر فى مختلف آفاقه ، ولنحاول الآن بيان مكانه فى مجال الإدراك الغيبى — إن كان له مكان بعد هذا التضارب فى تحديد آفاقه :

ورد فيما أسلفناه ما يشير إلى أن الإخبار بالغيب ، يدخل فى نطاق السحر فيما يدعى أهله ، ومن أجل هذا عرضنا للحديث عن السحر لنبين عن مدى ما فى هذا الادعاء من حق أو باطل ، فإن أصناف السحر السالفة الذكر ، لا تعتبر غيباً بالمعنى

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٤٧ — ٣٤٩ وبعد قصة طويلة تؤيد بها هذا القول تعود إلى الحديث فى ص ٣٦٠

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٠٢ (٣) المصدر نفسه ص ٣٦٥ وقد حذفنا ما يلى هذا من حديث عن طرق السحر وأنواعه ، لضيق المقام ، وكنا قد رجعنا فى تأريخها إلى طاشكبرى زاده ج ١ ص ٢٧٧ و ٣٠٤ — ٥ وابن خلدون ص ٩٥ و ٤٣٤ والتهانوى ج ١ ص ٦٤٩ — ٦٥١ وحاجى خليفه والقنوجى ... الخ .

الإسلامي الذى أسلفناه — إذا استثنينا نوعا واحداً هو سحر الأنبياء — فيما يقول إخوان الصفا — فإن ما عداه يجىء اكتسابا برياضة النفس أو إجراء عزائم أو تسخير كواكب ، أو استعانة بجن وأرواح أرضية أو نحو ذلك من طرق ، ولكنا سلمنا من قبل بأن الكهانة تدخل فى نطاق الإدراك الغيبى ، رغم استعانة أهلها بالجن والشياطين ، لأن مرجع الأمر فيها إلى طبيعة أصحابها ، وقد عرفنا أن الفلاسفة يقولون إن السحر مرجعه إلى الاستعداد الطبيعى عند أهله ، ولكنا إذا رجعنا إلى تحديدهم لآفاق السحر ، وجدنا أنه لا يكشف — فى رأيهم — عن خفى الأمور والأحداث التى طواها الماضى أو أخفاها المستقبل ، وعلى هذا فليس من الممكن اعتباره إدراكا غيبيا عند جمهرة مفكرى الإسلام .

والسحر الذى تتوافر فيه شروط الإدراك الغيبى كما نص عليها هؤلاء المفكرون، هو سحر الأنبياء الذى يكشف عن مستقبل محجب ولا يجىء اكتسابا ، بل وحياً وتأييداً إلهياً ، ولكننا لم نجد من المفكرين من يعتبر هذا سحرا غير إخوان الصفا — وقد زعموا فى سياق تأييدهم له، بأن الأنبياء قد عرفوا السحر ولكنهم لم يستخدموه ، لأنه ضرب من الحيل ، ولم يبعث الرسل من أجل ذلك ، ولو أنهم فعلوا هذا لكانت استجابة الناس إلى دعواهم ، استجابة للخديعة لا إلى العلم الذى فيه نجاة النفوس ، ذلك بالإضافة إلى أن فوائد السحر تقتصر على العلم الأرضى ، والأنبياء دعاة العالم العلوى — الذى هو أعلى من عالم الأفلاك ، وقد أبى الأنبياء أن يضيفوا إلى تأييد الله ووحيه حيلة بشرية أو نيرنجية فلكية ، أما نحن فيجوز لنا استعمالها فى مصالحنا الدنيوية وهم فى غنى عما نفتقر إليه[1] .

---

(١) إخوان الصفا ج ٤ ص ٤٧٥ — ٤٧٧ وفى غير هذه الصفحات ما يؤيد ذلك مثل ٤٣١ و ٤٢٣ وغيرها .

ولكننا نلاحظ بأن السحر لا ينسب إلى الأنبياء إلا مجازاً ، فإن جمهرة المفكرين لا يحتملون مثل هذا الرأى ، والذين زعموا بأن السحر إتيان بخارق وأنه يكون معجزة للأنبياء وكرامة للأولياء والصالحين ، قد صادفوا الكثير من حملات المنكرين لرأيهم . فأما الفلاسفة فقالوا إن المعجزة قوة إلهية تبعث فى النفس تأثيرا ، فالنبى يؤيد بروح الله على فعله ذلك[1] ، أما الساحر فإنه يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين فى بعض الأحوال ، فبينهما الفرق فى المعقولية والحقيقة والذات فى نفس الأمر[1] ، وقد ذهب المتكلمون إلى أن الفارق بين المعجزة والسحر — والكرامة — أن الأولى تقوم على التحدى بها بإذن الله ، وهى واقعة بقدرة الله لا بفضل النبى — وقد أقاموا هذا الرأى على أساس فكرتهم فى العقل المختار ، وإن كانت أفعال العباد تصدر عنهم — فى رأى المعتزلة — إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ، ولكن الحكماء الإلهيين ذهبوا إلى أن الخارق من فعل النبى وليس من الضرورى أن يكون مقترنا بالتحدى[2] ، وكان أهل السنة يجوّزون قدرة الساحر على أن يسبح فى الهواء ويقلب الإنسان حمارا والحمار إنسانا بقدرة الله[3] ، ولكن أهل الحق قد ذهبوا إلى أنه لا يقلب أحد عيناً ولا يجعل طبيعة إلا الله لأنبيائه وحدهم ، ولا يتبدل شىء مما فى العالم من فصوله الذاتية وأنواعه وأجناسه إلا حيث قام البرهان على تبدله[4] وفى المصادر التى نشير إليها إنكار بيّن لوصف الأنبياء بأنهم سحرة .

---

(١) ابن خلدون ص ٤٣٨

(٢) المصدر السالف ص ٨١ — ٨٢ ، وابن حزم ج ٥ ص ٧ — ١٠ يبطل هذا الرأى بخمسة أسباب يعرضها فى تلك الصفحات .

(٣) التهانوى يعرض الفكرة ويناقشها فى ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٥ ، ٦٤٩ — ٦٥٢

(٤) ابن حزم ج ٥ ص ٢ وما بعدها ، ويعرض الفكرة ويحمل عليها .

وعلى هذا فالرأى الراجح عند مفكرى الإسلام ، أن السحر لا يدخل فى نطاق النبوة ، وأنه إذا كان يكشف النيب — ماتصل منه بالماضى الطى أوالمستقبل المحجب، فإنما يجىء هذا اكتسابا لا طبيعة وفطرة ، ولا حقا وإلهاما . فليس فى السحر وفروعه فى مختلف معانيها ما يمكن أن يدخل فى نطاق الإدراك النبى الطبيعى كما سلم به أهل الشرع ، على نحو ما أبنا فى الباب الذى عقدناه على « علم النيب عند مفكرى الإسلام » .

وما ينبغى أن نفرغ من الكلام على السحر ، دون أن نسجل إعجاب الغربيين بمهارة المسلمين فى هذا الفن ، وحسبنا من هؤلاء الأستاذ « لين » Lane وقد روى الكثير من القصص التى شهدها فى مصر بنفسه ، منها أن الشيخ عبد القادر المغربى قد تمكن بسحره من معرفة اللص الذى سطا على أمتعة المستر سولت Mr. Salt قنصل انجلترا فى مصر ، وصرح بأن الساحر قد استطاع أن يستحضر أمام الوسيط — وكان صبياً صغيرا — صورة اللورد نلسون وشكبير وغيرهما من أصدقاء « لين » ومعارفه ..!! وأكد صدق هذه الظواهر مع اعترافه بجهله بسرها ، وتصريحه بأن الكثير من هذه التجارب قد فشل ، ولكنه يقول إنها كانت تبدو بين نجاح كامل أو فشل مطلق ، ولا وسط بينهما ، ويعقب قائلا إن مجلة Review Quarterly قد حاولت — فى عددها السابع عشر ص ٢٠٢ — ٢٠٣ — أن تفسر مثل هذه الظواهر ، بانعكاس الصور على سطح مرآة ، حيث تتلقاها عينا الصبى الوسيط ، على سحابة من الدخان ، ولكن « لين » رفض هذا الرأى تفسيراً لظواهر السحر التى رآها فى مصر (١) .

---

(1) Lane, p. 274-282

حسبنا الآن هذا عن أساليب التكهن الصنعى ، ولسنا ندعى بأنا قد أحصيناها وعرضنا للكلام عنها جميعا ، أو بأنا استوفينا الحديث عما عرضنا له منها ، لأن هذا بحث يطول أمره ، ويعوزه من الجهد والوقت فوق ما بذلنا وما قصدنا .

ولعل من الخير أن نقول الآن إن أساليب التكهن قد دخلها الزيف والدجل كثيرا ، واتخذها البعض أداة للاتجار ، مستغلا سذاجة الناس وسرعة التصديق عندهم ، طمعا فى اكتساب المال على حساب غفلتهم ، وقد مكّن لهذا الاستغلال اتصال التنبؤ بالميول الفطرية عند البشر[1] .

ولكن من الخير أن نبين عن موقف أهل الشرع من هذه العلوم ، وإن كنا قد عرضنا له قبل ذلك موجزين ، فقد يكشف هذا عن وجوه من التقابل بين موقف مفكرى الإسلام وموقف مفكرى اليونان والرومان قديما ، وإن كان من الضرورى أن ننصف فى هذه المناسبة على أن موقف المسلمين مرده إلى الدين ، يلجأون إليه ، ويستمدون منه العون فى تأييد ما يرون تأييده ، أو مهاجمة ما ينكرونه من أساليب التكهن . أما فلاسفة اليونان والرومان فإنهم كانوا يلجأون فى مناقشة هذه الأساليب ودحضها إلى العقل ومنطقه ، ومن أيدها منهم استعان بالتجربة والمنطق أكثر مما استعان بتقاليد الشعوب وعقائده الدينية .

---

(١) اعترف بهذا « كوتوس » Quintus الرواقى ، فى ختام دفاعه عن فنون التنبؤ الطبيعى ، فصرح بفشوّ هذا الدجل فى روما قديما — (انظر الفقرة ٥٨ من الكتاب الأول فى كتاب العلم بالغيب لشيشرون) وقد شرح شارل أبون موقف مجلس الشيوخ الرومانى فى مقاومة هذا الدجل (فى تعليقه على الفقرة السالفة فى طبعة جارنييه) .

— ٧ —

موقف أهل الشرع من العلوم السالفة

اختلفت وجهات النظر عند المسلمين ، بين تأييد هـذه العلوم وتحريمها ، ولعل مؤيديها كانوا متأثرين بالتراث العقلي القديم ـ ولا سيما الهيليني الذي انتقل إلى المسلمين في هذا الصدد ، كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الخلاف بين المتكلمين من معتزلة وأشاعرة ، وإخوان الصفا ومن إليهم في مجال التنجيم ، أما منكرو هذه العلوم الصنعية فقد تأثروا ـ فيما يظهر ـ بالروح الديني ، وتحقير كل تنبؤ لا يرد إلى وحي الله وإلهامه . ومن مظاهر هذا الخلاف أن نرى الغزالي يذكر العلوم التي يعتبرها العامة علوما محمودة وليس منها ، فيقول ماخلاصته : إن العلم هو معرفة الشيء على ماهو به ، وأنه من صفات الله تعالى ، فكيف يقال إنه مذموم ..؟ في الحق إن العلم لا يذم لذاته ، وإنما يذم في حق الناس لأحد أسباب ثلاثة ، يعنينا منها اثنان : (١) أولها أن يكون العلم مؤديا إلى ضرر صاحبه أو أذى غيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات ، وهو في ذاته حق إذ شهد له القرآن ، والثابت أن الرسول قد سحر حتى أنبأه بذلك جبريل وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر ، فمعرفة السحر ليست مذمومة إلا لأنها أداة لإضرار الناس : (٢) أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر ، كعلم النجوم ـ فهو في نفسه غير مذموم لذاته ، وعلم الأحكام منه ما هو مذموم شرعا ، قال الرسول إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ... وقال أخاف على أمتي بعدي من ثلاث : حيف الأمة ، والإيمان بالنجوم ... وقال عمر تعلموا من

النجوم ما تهتدوا به فى البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه :

ا) قد يظن الناس أن الكواكب هى المؤثرة فهى الآلهة المدبرة يرجى منها الخير ويحذر منها الشر من جهتها ، وينمحى بذلك ذكر الله[١] .

ب) أن أحكام النجوم محض تخمينات ، فهى لا تدرك يقيناً ولا ظنا ، وقد كان العلم معجزة لإدريس وانمحى ، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو محض اتفاق ، كتخمين الإنسان بأن السماء ستمطر اليوم استناداً إلى الغيم ، وربما ذهب الغيم فلا يصدق حدسه ، وكتخمين الملاح بأن السفينة تسلم اعتمادا على ما عرفه من أمر الرياح ، رغم أن للرياح أسبابا خفية لم يطلع عليها .

جـ) أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض فى فضول لا يغنى ، وتضييع العمر فيما لا طائل تحته ، وما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن[٢] .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن العلماء بين مسلم بهذا التقسيم ومنكر له ، فالسحر الذى أشير إليه الآن لم يتفق العلماء على حكم الدين بصدده ، وهم بين مبيح ومحرم ، وبعض مؤرخيه يقول إن أكثرهم قد أباحه ، وجعله بعضهم فرض كفاية لجواز ظهور ساحر يدعى النبوة ويظهر الخوارق بالسحر ، فيفترض وجود من يدفعه فى الأمة[٣] وقال بعضهم إن السحر لا يظهر إلا على يد فاسق كما أن الكرامة لا تظهر

---

(١) أشار إلى هذا غير الغزالى من مفكرين ومؤرخين كالتهانوى ص ٥٢ وطاشكبرى زاده ص ٢٧٦ وبعض المستشرقين — على ما عرفنا من قبل .

(٢) الغزالى فى الأحياء جـ ١ ص ٢٦ — ٢٧ والسبب الثالث : ذم العلم لأنه لا يفيد فهو مذموم فى حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها . . . وقد أعتبر التهانوى ص ٥٢ السحر والنجوم والطلسمات والتيرنجات علوما غير محمودة .

(٣) طاشكبرى زاده جـ ١ ص ٢٧٧

إلا على يد متق مؤمن[١]، وليس له دليل من العقل إلا إجماع الأمة، وعلى هذا كان تعلمه حراما مطلقا لأنه توسل إلى محظور، وأما مايثير الدهشة مما يفعله أصحاب الحيل بالاستعانة بالآلات والأدوية، أو مما يبدو من صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرا على التجوز[٢] وقيل إنه كفر لأن الأرواح الكافرة المعينة على السحر لاتجيب الساحر إلا إذا خرج عن دين الإسلام[٣]، واحتج هؤلاء بآراء الأئمة الذين أجمعوا على تحريمه، وإن اختلفوا فى كفر من يتعلم السحر ويعلمه[٤]، والراجح أنه حرم لأن رياضته إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والخضوع والتذلل، فهى وجهة إلى غير الله[٥] فإن الأصولى الأندلسى أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى يقول: إن العرب اعتنوا بعلوم صحت الشريعة منها ماهو صحيح، وأبطلت ماهو باطل، ثم يذكر علم النجوم بين العلوم الصحيحة، ويذكر العيافة والزجر والكهانة والضرب بالحصى والطيرة ونحوها بين العلوم التى أبطلتها الشريعة[٦] وهكذا تراوح علم النجوم بين التحريم والإباحة.

وذهب البعض إلى أن علم النجوم على ثلاثة أقسام: حسابات تعيينية فى علمها قد يعمل بها شرعا، وطبيعيات كالاستدلال بانتقال الشمس فى البروج الفلكية على

---

(١) أشرنا من قبل إلى أن هذا رأى الحكماء الإلهيين فى ردهم على المتكلمين.

(٢) التهانوى جـ ١ ص ٦٤٨

(٣) الشعرانى فى اليواقيت جـ ١ ص ١٤٣

(٤) الشعرانى فى الميزان جـ ٢ ص ١٤٣.

(٥) ابن خلدون ص ٤٣٤ ــ ٤٣٥

(٦) الشاطبى: الموافقات جـ ٢ ص ٤٦ (عن الاستاذ أمين الخولى فى تعليقه على مادة تفسير فى دائرة المعارف الإسلامية).

تغيير الفصول ، فليست بمردودة شرعا ، ووهميات (أحكام النجوم) كالاستدلال على الحوادث السفلية من اتصالات الكواكب ، فلا استناد لها من أصل شرعى ، ولهذا فهى مردودة شرعا، والأحاديث النبوية فى هذا كثيرة(١).

وقال بعض منكرى هذه الأصناف من إدراك الغيب ، إن الله تعالى يقول : وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، وأن الرسول يقول : من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد(٢) ، وقيل إن الكهانة على قسمين : فطرى وآخر كسبى ، (قيل إنه العرافة) وأن هـــذا هو الذى حرمت الشريعة سلوكه ، فوجب الاحتراز عن تحصيله واكتسابه(٣) . ولكن بعضهم يعترف بأن فى حديث أهل الكهانة مايعزى إلى الكفر(٤). وقد أشرنا إلى موقف المفكرين من الكهانة بعد بعثة الرسول وهجماتهم عليها حتى أبى الكثيرون أن يسلم بوجودها بعد البعثة، والذين دافعوا عنها لم تسلم من حملاتهم دينيا ، وكان الفقهاء من متأخرى علماء الدين لايرون فارقا ــ فيما يبدو بين الفلسفة والكهانة والسحر والشعبذة والتنجيم والرمل.! ويحرمون الاشتغال بها(٥) .

على أن الاتجاه الشائع ــ رغم هذه الخلافات كلها ــ هو الذى عرضناه فى الفصل الذى عقدناه على « علم الغيب عنـد مفكرى الإسلام » وقلنا فيه إن الله وحده هو علام الغيوب، وأنه يهب العلم بالغيب من شاء أن يجتبيه من عباده ، وأن هذا الاتجاه قد انتهى إجمالا إلى تأييد التنبؤ الطبيعى فى مختلف فنونه ، وإنكار الصنعى فى شتى أساليبه .

---

(١) حاجى خليفة ج ٢ ص ٣٨١ وانظر القنوجى ص ٢٩٣ و ٦٢٣

(٢) التهانوى ج ١ ص ٥٢ ورواه الأبشيهى « ... فقد برئ مما أنزل على محمد ... »

(٣) حاجى خليفة ج ٢ ص ١٩٥ (٤) حديث أبى سليمان السجستانى فى مقاييسة الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب ص ٢٢٦ من المقاييسات .

(٥) قارن مصطفى عبد الرازق باشا فى تمهيده لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٨٨ ــ ٩ حيث يورد استشهادين رائعين فى هذا الصدد .

— ٨ —

موقفنا من التكهن الصنعى

عرضنا الأساليب التى كان يتبعها أصحاب التكهن الصنعى ، وقلنا إن جمهرة مفكرى الإسلام قد أبعدوها عن نطاق الإدراك الغيبى ، لأنها تستند إلى مهارة الصنعة ، ومنطق العقل وأدوات الحس ، ولا تصدر عن طبيعة أهلها وحدها ، أو تفيض عن وحى الله وإلهامه .

وهذه الأساليب مردّها — فيما يبدو لنا — إلى سعة الخبرة ، وبعد النظر ، وحسن التقدير ، وتوثب الفطنة والتبصر ، ووقدة الذكاء وسرعة البديهة ، وصدق الحدس ، ودقة الملاحظة ، وحسن الأخذ من سابق التجربة ، ونحو هذا مما رفض جمهرة مفكرى الإسلام إعتباره أداة لإدراك غيب محجب ، ولكن مناهج البحث العلمى لاترفض اكتشاف المجهولات ، متى أدت إليها مقدمات ، استناداً إلى القول بأن العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما ، ومن هنا جاز القول بأن ما أسلفناه من أساليب التكهن الصنعى ، يصدق منه كل ماوضحت فيه روابط المعلول بعلته ، ويكذب منه فى منطق العقل كل ما افتُقِدت فيه هذه الصلات ، وإن كان من الضرورى مع هذا أن ننص على أن عجز العقل عن تفسير ظاهرة ما ، لايبرر التأدى — فى كل حال — إلى إنكار هذه الظاهرة[1] . وفى ضوء هذا ، نستطيع أن نحلل — موجزين — أهم ما أسلفناه من الأمثلة التى عرضناها فى أساليب التكهن الصنعى :

(١) سنعود إلى مناقشة هذا فى الفصل التالى .

ذكرنا نموذجا للكهانة يتمثل فى التنبؤ بسيل العرم ـ الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وقلنا إن ظريفة الخير قد كهنت بأمر السيل فى رؤيا ، ثم تطيرت من مشاهد المناجذ والسلحفاة ونحوها ، فتنبأت بوقوع السيل الذى اجتاح البلاد على ماعرفنا ، والملحوظ من هـذا أنّا لانجد بين ما رأته وما انتهت إليه ، علاقة عِلّية ، ومع هذا لانميل إلى تكذيب القصة ، لأننا نجد فى تحليلها مايغنينا عن إنكارها ، لأن من الميسور على أهل الخبرة والفطنة ودقة الملاحظة والعلم بقوة السيل فى كل عام ، وملاحظة التحلل الذى بدأ يدرك السد ، أن يتوقعوا عجز السد عن مقاومة السيل المقبل ، وأنه إن استطاع أن يصمد للسد عاما ، فلن تدوم مقاومته أكثر من سبع سنين ـ كما ورد فى القصة ـ وحسب ظريفة وأمثالها من الكهان ، أن يدركوا ذلك ، أو أن يتسامعوا به من أهل الخبرة والفطنة ، فإن هذا كفيل ـ من الناحية السيكولوجية ـ بأن ينشىء عند النوم حلما تبدو فيه سحابة تنهمر وسط رعد وبرق ، ويكبر المنظر فى منطق الحلم ، فلا تأتى السحابة على شىء إلا أحرقته .. !

وأما المشاهد التى تثير التطير والتشاؤم ، فإنها كثيرة فى حياة كل إنسان ، فى كل زمان ومكان ، فإن كان للمناظر التى رأتها تلك الكاهنة دلالة على غيب محجب ، فلماذا تكون دلالتها قائمة فى وقوع سيل مجتاح ، ولا تكون موت عزيز أو قيام حريق أو نزول وباء أو نحو ذلك ..؟

وأما الفأر الذى كهنت بوجوده فى السد ، واقتداره على قلب صخرة يعجز عن قلبها خمسون رجلا ، فإن هذا مرده إلى الإغراب فى التصوير ، والتنميق فى التعبير ، أو مرجعه إلى القول بأن سدا كبيرا يتحلل ـ كسد مأرب ـ لايسهل تصوره خلوا من الفيران ، وفى استطاعة الفأر أن يحفر تحت الصخرة الكبيرة فإذا بها تهوى

مقلوبة ..! ولعل من قبيل الإغراب فى التصوير ، امتلاء الزجاجة بتراب البطحاء من غير ريح ، وظهور الحصباء فى سعف النخل ..!

ومن قبيل هـذا الذى يفتقد فيه العقل العلاقة بين المعلول وعلته ، مارويناه من أمثلة العرافة ، فى الاستدلال على المُغَيَّب بكلمة تُسمع أو منظر يرى أو نحو ذلك ، وليس من السهل أن نكتشف علاقة عِلِّية بين نوى التمر الذى رآه العراف الأعمى ، والياقوت والزمرد وغيره مما سرق من خزانة الرشيد ، إنها علاقة تشابه فى الشكل أو اللون أو نحوه مما لايمكن اعتباره علاقة علية بحال ما . ومن الواضح أن أشباه النوى فى غير الأحجار الكريمة كثيرة . ولعل الأدنى إلى الصواب أن يقال إن العراف قد تسامع بأن الرشيد قد سرقت خزانته ، وليس هذا بالشىء الذى يكتم نبأه ، فرتب العراف على ماسمع ، كل ما ورد فى قصته ، ومثل هذا يقال فى قصة أبى معشر وخلاص السجين وغيرها من قصص .

وما قيل فى الكهانة والعرافة ، ينسحب على الفأل والطيرة ، فإن ما وقع لجعفر البرمكى أو للوليد بن عبد الملك ، مرده إلى مجرد المصادفة فيما يلوح ، ولو لم يسمع جعفر الشعر الذى تطير منه ، لما كان فى حكم العقل أن يتغير مصيره من أجل ذلك . ولو لم يمزق الوليد كتاب الله ، ما كان يحتمل أن ينتهى — من جراء ذلك — إلى غير القتل والصلب . وما أجمل موقف عمر بن عبد العزيز حين أنكر استفتاء القمر فيما ينتظره من أحداث — على مارويناه من قبل ، وهذا يشهد بأن المسلمين — كغيرهم من شعوب الأرض لم يكونوا على اتفاق بصدد الإذعان لهذا النوع من التطير والتفاؤل . وقد صدق ابن قيّم الجوزية حين قرر بأن التطير يكون لمن خافه وخشى مغبته ، وينعدم أثره عند من أغفل شأنه وأسقطه من حسابه .

فكأن ابن قيم الجوزية ، أراد أن يقول : إن المثير الذى يؤدى إلى التطير عند

إنسان، قد يبعث على التلهى والتهكم عندغيره ، فالعبرة بمركز الاستجابة ، لا بمصدر الإثارة ، فإن المسكر ، يستجيب له أهل المرح بالغناء والرقص ، وأهل المزاج السوداوى بالكآبة والبكاء ، وأهل الشغب والإجرام بالتخريب والتدمير ..! فالمؤثر واحد ولكن الاستجابات بيّنة الاختلاف ، ومن هنا كانت مثيرات التطير عند أهله ، تفضى عند أصحاب الأعصاب السليمة والمزاج المعتدل والنظر المتزن ، إلى التندر الظريف بالتطير وأهله، وقد تحدث الدكتور طه حسين بك فى محاضرة له ، عن إسراف ابن الرومى فى التطير ، إلى حد ملازمة بيته أياما ، لأنه رأى جاره الأحدب أو نحو ذلك ، وعقب قائلا إن تشاؤمه وتطيره قد أصاب ديوانه ، فلم يعرض له أحد ، إلا أصابه من ذلك سوء ، « وبعض الناس يتندر بذلك ، لأن الأستاذ العقاد ، أراد أن يكتب عنه فسجن .! وأرجو ألا تكون محاضرتنا عنه مصدر شىء من هذه الأشياء التى أعيذكم أنتم منها إن لم أعِذ منها نفسى ..! »(١)

وقد تحدث الدكتور عن طبيعة ابن الرومى ، فى حدة مزاجه واضطرابه واعتلال طبعه وضعف أعصابه ، ودقة حسه التى تكاد تبلغ حد الإسراف . وذهب العقاد فى معرض حديثه عن طيرة هذا الشاعر إلى أن « الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشىء من ضعف الأعصاب واختلالها » ولعل الأستاذ يريد بضعف الأعصاب ، مايسميه الأطباء Neurasthenia وهى حالة تكون فى العادة وراثية ، وقد تنشأ عن ضعف البنية أو تتخلف عن الحميات والأمراض المعدية والإدمان على المخدرات والإصابات النفسية ونحوها ، وكثيراً ماتحدث عقب إجهاد لحيوية الجهاز العصبى ، وتؤدى إلى

---

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ (طبعة أولى)

قصور فى العقل والجسد وهى تسمى Psychasthenia إن كانت أغلب أعراضها نفسية[١]

« والرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم لأنه ينتظر من الدنيا خيراً ، ولا يحس النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها ، وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافة ، فتقع على نفسه موقعا خفيفا ، يملك معه عزمه ، ويضبط معه شعوره ، فهو فى غنى عن الحذر والتوجس ... أما مختل الأعصاب فالصغائر مكبرة فى حسه ، والأشباح والأطياف كثيرة فى وهمه .. تتوارد عليه المنبهات ، وكل طارق فى الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج ـ فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ، ويلمح المخاوف حيث لا يلمحها الآخرون ، كما هو الشأن فى كل مستحضر للحذر ، متوقع للمفاجأة »[٢] فالتوقع واستحضار الحذر من كل مجهول ، هو سر التطير عند أهله .

أما شيوع التنجيم فى قصور الخلفاء فإن له مايبرره ، لأن الملوك والحكام أكثر الناس حرصاً على مراكزهم ، وتهيبا من مخبئات غدهم ، ولا غرابة ـ إن صحت القصة ـ فى أن يتنبأ إنسان بوفاة الحجاج وهو مشرف على الاحتضار ..! وليس ثمة مايمنع علم المنجم بأن أم الحجاج كانت تسميه كليبا ..! ومثل هذا يقال فى الكثير من أحداث المنجمين مع الحكام ، وقد أشرنا من قبل إلى أن من هؤلاء الحكام من رفض الاعتقاد فى صحة ما يقول المنجمون .

أما عن الفراسة وفروعها ، فليس من الغريب أن يصدق « الكثير » منها ، وإن كان الرازى يقول عن علم الشامات والحيلان والاختلاج والضربان ، ودوائر أبدان

---

(1) H. Letheby Tidy, A. Synopsis of Medicine p. 124 ff.

سادس طبعة ١٩٣٤ ـ وقد أمدنا صديقنا الطبيب الموفق الدكتور رجب عبد السلام (إخصائى الأمراض الباطنية بكلية الطب) بمادة طيبة فى التعليق على هذه النقطة ، ولكن ضيق المقام حال دون نشرها .

(٢) العقاد : ابن الرومى ص ١٩٣ ـ ٤

الخيل ونحوها ، إن من المتعذر ردها إلى أصول عليه ، أو إرجاعها إلى تجارب مروية عن المتقدمين[1] ، ولكننا نرى أن مايصدق منها يمكن إخضاعه لقانون العلية ، وفى ضوء هذا نقول إن قيافة الأثر ، تبدو أصدق من قيافة البشر ، فقدرة أولاد نزار بن معد على وصف بعير — لم يروه — استنباطا من آثاره ، لها ما يبررها فى مجال التعليل الذى يكشف عنه النظر الثاقب ، وتهيء له دقة الملاحظة . أما قيافة البشر فقد كان المسلمون على حق فى الاختلاف فى أمرها ، فإن كثرة الشذوذ فى قواعدها ، تفسد اتساق هذه القواعد ، والمثال الذى سقناه للتدليل على فراسة أقليمون ، يمكن تفسيره بأنه كان يعرف ميل بقراط للزنا ، وإذا كان هذا قد صرح بميله لتلامذته حين استفسروا منه عن ذلك ، فلا يبعد أن يكون قد ذكر هذا من قبل ، وأن يكون أقليمون قد تسامع به ، ولا حجة لقول رواة القصة ، إن «إقليمون» كان لا يعرف أن صاحب الصورة هو بقراط لأنهم يقولون « ... فصوّروا صورة بقراط .. وكانت يونان تحكم المصوّر من جميع الوجوه ، فى قليل أمره وكثيره ...» وكان بقراط هذا يعاصر أقليمون ، فالراجح أنه كان يعرف صورته .

وإذا كان الاهتداء بالبرارى والقفار والريافة واستنباط المياه والمعادن ونزول الغيث ونحوه ، يصدق متى صحت المقدمات التى تفضى إلى نتائج هذا النوع من العلم ، فإن علم الأسارير والأكتاف والاختلاج والاختبارات ونحوه ، لا يصدق — فيما يلوح — إلا مصادفة ، لا تسكن إلى قاعدة يشهد بها قانون العلية ، ويرتضيها منطق العقل .

وهكذا ننتهى إلى القول بأن أحداث الغيب المحجب ، يتيسر الإنباء عنها ، متى سبقتها مقدمات تنذر بها ، وهذه المقدمات تتكشف للقليلين ، وتخفى على الكثيرين ، لأن الناس يتفاوتون فى خبرتهم ومدى ما يفيدون منها ، ويختلفون فى دقة الملاحظة

---

(١) الرازى : الفراسة ص ١٠ — ١١

وبعد النظر والقدرة على الحدس ، وغير هذا مما أسلفنا الإشارة إليه ، فإن ثبت انقطاع « الاتصال الملّى » بين أحداث الغيب ومقدماته ، وجب التصدى لتكذيبها ومحاولة تحليلها فى ضوء المنطق العقلى وحده .

وإذا كنا قد استطعنا أن نحلل النماذج السالفة فى ضوء المنطق وحده ، فمن الإنصاف للحقيقة أن نعترف بأن فى فنون التكهن الصنعى ظواهر يقصر عن إدراكها وتعليلها منطق العقل فى وضعه الراهن ، وهذه نقطة سنعود إلى مناقشتها وبيان موقفنا إزاءها فى الفصل التالى .

وأخيراً ، من الخطأ البين أن يستخف الناس بأصحاب التكهن ، فإن «لومبروزو» ومدرسته التى تأثّم به ، قد اعتبروا الولع بالغيب واستكناه أسراره من علامات العبقرية . ! وهذه العلامات « مهما يكن الشك فى استقصائها ، والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع ، صادقة فى حالات ، ومقاربة فى حالات ، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام ، ولا سيما عند ما تتفق الظواهر والبواطن ، وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور »[1] . ولعل هذا الرأى يبرره ما أسلفناه من قبل ، من أن هذا التكهن قد لا يتيسر بغير استعداد فكرى يتهيأ لأصحابه ، وحتى الجانب المكتسب منه ، لا يتوافر للناس جميعا ..

حسبنا هذا إشارة إلى مكانة أصحاب الولع بخفايا الغيب أو النزوع إلى استيضاح بواطنه وكشف أسراره .

---

(١) عبقرية عمر ص ٣٠ — ٣١

كلمة أخيرة

التنبؤ بالغيب بين مفكرى الإسلام وفلاسفة اليونان والرومان :

عرضنا فنون التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام ، وقلنا إن قدماء الغربيين قد عرفوا مايشبه فنون التنبؤ الطبيعى ، وأساليب التكهن الصنعى — من كهانة وعرافة وطيرة ونجامة وعيافة ونحوها — وصرحنا فى مقدمة الكتاب — وفى غضون الكثير من فصوله — بأننا نميل إلى رد الكثير من وجوه هذا التشابه ، إلى طبيعة العقل البشرى ، فى وحدة استجاباته للمؤثرات المتشابهة ، وقلنا إن هذه النظرية تتناول وجوه الحضارات البدائية من سحر وعقائد دينية ونحوها ، وتمتد إلى دقائق البحث العلمى .. ! فلنقف عند هذه الظاهرة قليلا :

نتائج التشابه فى مصادر الإثارة ومراكز الاستجابة :

فى سنة ١٨٣٧ عقد تشارلس داروين Ch. Darwin عزمه على أن يكشف عن حقيقة النشوء بالانتخاب الطبيعى ، فاعتصم بالصبر والأناة ، وراح يتنقل فى شتى بقاع الأرض منقبا عن الوقائع التى يتطلبها بحثه ، عاكفا على عمله فى صمت يثير الإعجاب ، وازان أضحى مضرب الأمثال ، عاف الطنطنة وزهد فى الدعاية لنفسه ، فأبى أن ينشر عن نتائج بحثه مقالا ، أو يشير إليها مجرد إشارة ، وإن صارح بها عام ١٨٤٤ صديقه العلامة يوسف هوكر Joseph Hooker فأسرّ إليه بخلاصتها خفية عن الناس[1] .

---

(1) A. D. White, A. History of the Warfare of Science with theology in christendom

واصل داروين بحثه فى هذا الجو العلمى الصامت الهادئ عشرين عاماً ونيفاً .. !

وعندئذ — أى فى عام ١٨٥٨ — تلقى مذكرة من ألفرد والاس Alfred Russel Wallace تتضمن خلاصة النتائج التى انتهى إليها فى بحثه موضوع النشوء بالانتخاب الطبيعى ، خلال عشرة أعوام قضاها فى التنقيب والبحث والتنقل بين البرازيل وأرخبيل الملايو ، ومع المذكرة خطاب يطلب فيه إلى داروين أن يبعث بها — بعد الاطلاع عليها — إلى العلامة تشارلس ليل Sir. Ch. Lyell ليقدمها إلى منتدى لينيوس Linnean Society . وما اطلع داروين على هذه المذكرة حتى أثارت دهشته، لأن صاحبها — والاس — قد اهتدى على وجه التحقيق إلى نفس النتائج العامة التى وصل إليها داروين من قبل .. ! ويسجل داروين — فى أمانة العالم النزيه — هذه المفاجأة فى مطلع كتابه عن أصل الأنواع ، فيقول عن « والاس » إنه : « Has arrived at almost exactly the same general conclusions that I have on the origin of species » (1)

فما تفسير هذا الاتفاق الذى وقع بين عالمين يبحث كل منهما مستقلا عن الآخر..؟

التفسير الراجح فى منطق العقل ، أن الوقائع التى كانت موضوع البحث عند كليهما من نوع واحد ، وطبيعة العقل عند كليهما واحدة ، ومن ثم انتهى البحث عند كليهما إلى نتائج متشابهة ، ولم يكن فى حكم العقل أن تختلف وجهات النظر ، وقد تشابه فى الحالين مصدر الإثارة ومركز الاستجابة .

---

(1) Ch, Darwin, The Origin of Species-intr. p. 1. (1920) وعندئذ نصحه « هوكر » و « ليل » بالمسارعة بتقديم بحثه للهيئات العلمية وجمهور القراء ، مخافة أن يفقد ثمرة عمله المتواصل طوال هذه المدة ، فقدم إلى منتدى لينيوس — مع بحث والاس — خلاصة بنتائج أبحاثه ، ونشر البحثان فى الجزء الثالث من مجلة المنتدى ، وبادر إلى إصدار الجزء الأول من كتابه « أصل الأنواع » فى يوليه ١٨٥٨ ، واعترافا بمنهجه فى البحث وغزارة مادته ووفرة أدلته ، نسبت إليه نظرية التطور ، وسقط عند الناس اسم « والاس » .. !

وإذا كان هذا هو الحال فى دقائق البحث العلمى، فى موضوعات لا تتصل بطبائع البشر ، فما أحراه أن يكون كذلك فى موضوع كموضوع التنبؤ بالغيب ، تربطه بالطبيعة البشرية أوثق الصلات .

على أننا نبادر — دفعاً لكل لبس — إلى تسجيل احتياط لا سبيل إلى إغفال ذكره ، وهو أن ميلنا إلى تفسير الكثير من وجوه التشابه فى ضوء هذه النظرية ، لا يمنع من ميلنا إلى التسليم بردّ وجوه من التشابه فى هذا الصدد إلى نقل اللاحق عن السابق ، وعدوى الآراء وتزاوج الثقافات .

على أن الكثير من الآراء التى انحدرت إلى المسلمين عن اليونان والرومان ، مرجع الفضل فيها إلى قدماء الشرقيين .. !! فعن هؤلاء استقى الغربيون الكثير من الآراء التى تسللت إلى العالم الإسلامى بعد ذلك — فيما يقول مؤرخو التكهن بالغيب . ومن دلالات هذه الظاهرة :

أن مجلس الشيوخ الرومانى قد قرر — فيما يقول شيشرون منذ عشرين قرنا — إيفاد ستة — وقيل عشرة — من أبناء البارزين من الرومان ، إلى كل قبيلة من قبائل اتروريا ، لدراسة أساليب التكهن ، مخافة أن تضمحل وتتحول إلى أداة للاتجار والارتزاق[١] . ويرجع انتشار علم التنجيم — فيما يقول بوشيه لوكليرك — فى دول البحر الأبيض ، إلى الكاهن الكلدانى « بيروس » Bérose[٢] بل رد هيردوت فن التكهن اليونانى إلى أصل مصرى[٣] .

---

(1) Cicero, Divination, 1. 41 وقد مهر هؤلاء فى التكهن بفحص أحشاء الحيوانات وتأويل النذر الزاجرة المستمدة من خوارق الأرض والسماء — انظر الفقرة التالية فى الكتاب نفسه .

(2) Bouché. Leclercq, L'Hist. de la Divination, 1. p. 207

(٣) قارن تعليقات شارل أبون فى طبعة جارنييه على الفقرة الأولى من القسم الأول فى كتاب شيشرون السالف الذكر .

ويروى « شارل أيون » أن مجلس الشيوخ الرومانى كان كثيرا ما يضيق بكثرة الشرقيين من الكهان فى روما وإيطاليا كلها . وقد تقرر فى عام ١٣٩ ق . م طرد الكلدانيين من روما فى ظرف عشرة أيام[١] .

ويصرح الأستاذ بوشيه لوكليرك Bouché-Leclercq بأن اليونان قد استعاروا الكثير من معلوماتهم فى موضوع الأحلام ، عن مصر وغيرها من بلاد الشرق القديم[٢] ، وإذا كان الثابت أن المسلمين قد استعاروا الكثير من وجهات نظرهم فى تأويل الرؤيا ، عن كتاب أرطميدورس اليونانى ، على اعتبار أن ابن النديم يقول إن حنين ابن إسحاق قد نقل هذا الكتاب إلى العربية[٣] ، فإن الأستاذ « سايس » يصرح بان أرطميدورس قد استق مادة هذا الكتاب عن البابليين .. ![٤]

فمن حقنا بعد هذا أن نقول إن العالم الإسلامى ، إذا كان قد استق بعض آرائه فى أساليب التنبؤ عن الغربيين ، فمعنى هذا أنه استرد تراثا شرقيا قديما كان قد انتقل إليهم وتفاعل مع تراثهم فى هذا الصدد ، وقد تمثل المسلمون هذه العناصر الشرقية المتغرّبة ، لأنها تساير روحهم وتتفق مع طبائعهم .

ومعنى هذا أن وجهات النظر الإسلامية فى موضوع التنبؤ بالغيب فى كل صوره ، مردها — فى الأغلب والأعم — إلى طبيعة التفكير عند أهلها ، والتراث الذى زودهم به الدين الإسلامى والبيئة العربية إجمالا . والنظرية التى حرصنا على تطبيقها على موضوع هذا الكتاب وهى «متى تشابهت مصادر الإثارة ومراكز الاستجابة ، تحتم

---

(١) شارل ابون فى تعليقه على الفقرة الحادية والأربعين من كتاب شيشرون Cicero فى « العلم بالغيب » طبعة جارنييه الفرنسية .

(2) Bovché-Leclercq vol. 1. p. 292,295

(٣) ابن النديم : الفهرست ج ٢ ص ٢٢٥ طبعة فلوجل .

(4) A. H. Sayce, Ency. of Religion and Ethics, art. Divination

وانظر فى تفصيل هذا كتابنا «الأحلام» .

أن تتشابه استجابة هذه المراكز » هذه النظرية لا تنفى تسليمنا باتصال المذاهب الغربية من رواقية وفيثاغورية وأفلاطونية محدثة وغنوصية Gnosticism ونحوها ، بالتفكير الإسلامى وتفاعلها معه حتى اصطبغت بها استجابات العقل الإسلامى ، ولو أنت تفكيره حين فلسف نظرته لهذا الموضوع ، أو علل ظواهره وفسرها فى ضوء المنطق. وقد استوعب هذه العناصر الدخيلة وتمثلها ، وصبها فى قالب عربى إسلامى ، يكاد الناظر إليه — فى حالات التنبؤ الطبيعى بوجه خاص — ألا يفطن إلى المواد الغريبة التى شاركت فى تكوينه .

عود إلى موقفنا من التنبؤ :

أبنا فى الفصل السالف عن موقفنا من التكهن الصنعى ، وعرضنا لتحليل النماذج التى سقناها شاهدا على صحة أساليبه ، وحددنا ما يصدق منها وما يبطل فى منطق العقل ، وقلنا إن العقل العلمى يذعن لنوع من التنبؤ ، تستخلص فيه نتائج مجهولة من مقدمات معلومة ، على افتراض أن العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما ، وليس يسهل على هذا العقل أن يسلم بنتائج لا تسبقها مقدمات يقررها ، ومعلومات لا ترتد إلى علل « قريبة » يسهل عليه إدراكها ، ومعارف لا تجىء عن طريق حس أو نظر عقلى ، ومعنى هذا — إن جاز أن يكون مثل هذا العقل العلمى ، هو الحكم الوحيد فى قضية التنبؤ بالغيب — أنه سينتهى إلى عكس ما انتهى إليه مفكرو الإسلام ، حين رفضوا التسليم بالصنعى من أساليب التكهن ، فاستبعدوا من مجاله كل ما كان نتائج لمقدمات تبرر قيامها ، وأذعنوا للتسليم بالتنبؤ الطبيعى الذى لا يجىء صناعة ولا اكتسابا . . !

ولكن الملحوظ أن التنبؤ الطبيعى ليس وحده الغريب على منطق العقل ، بل إن

فى فنون الصنعى من التكهن ظواهر قد تقصر العقول عن إدراكها ، رغم أن بعضها يدخل فى نطاق التنبؤ العلمى السالف الذكر ، من حيث إنها نتائج لمقدمات تسبقها ، ومعلومات لعلل تؤدى إليها ، فماذا يكون موقف العقل من مثل هذه الظواهر . . ؟

أينكر صحتها استنادا إلى عجزه عن فهمها . .؟ كلا ، فإن من الحق أن يقال إن الظاهرة قد يستقيم وجودها ، مع الجهل بتفسيرها والقصور عن تعليلها ، وفى ذلك يقول فلاسفة الرواقية الذين أبلوا فى الدفاع عن التنبؤ بلاءحسنا ، أن إنكار قيام ظاهرة ما ، اعتمادا على عجز العقل عن فهمها ، يبرر عند من يجهل سر المغناطيسية أن ينكر جذب المغناطيس للحديد وهو يراه بعينيه ، ويبيح لمن يعجز عن تعليل علاج الأمراض ببعض الحشائش ، أن ينكر أثر هذه الحشائش فى شفاء المرضى ، وكم شهدت التجربة بصدق ذلك . .!!

وهذا صحيح فى منطق العقل نفسه ، ولكن هل معنى هذا أن العقل مطالب — تمشيا مع هذا المنطق — بأن يسلم بصحة مايقصرعن إدراكه وتعليله . . ؟ كلا ، فإن بعض الذين أوتوا المهارة فى الألعاب ، (كالحواة ونحوهم) قد يأتون من الألعاب والحيل ما يثير كل دهشة ، وتقصر عن إدراكه العقول ، ومع هذا فإن بعضهم — على الأقل — لا يدعى بأن ألعابه التى يبدو أن تفسيرها ليس فى متناول العقول ، أثر من آثار القوى الخارقة لنواميس الطبيعة . . ! فكيف تطالب العقل بعد هذا بأن يذعن للتسليم بصحة كل ظاهرة لا يتوى على فهمها . . ؟ فى الحق إن من الخطأ البين أن ينتهى الإنسان من قصور العقل عن التفسير والتعليل ، إلى القطع بالإنكار أو الجزم بالتأييد .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن العقل ليس كل ما لدى الإنسان من أدوات

المعرفة ، وإن كان فى رأينا أكملها جميعا .. ! وإن صح هذا كان من حق الإنسان أن يتردد فى الإذعان لبعض أحكام العقل ، وأن يتريث فى إنكار الظواهر التى عجز هذا العقل بمناهجه عن تفسيرها ، هذا إلى احتمال أن تتهيأ له فى مقبل الأيام قدرة تمكنه من فهم ما عجز عنه فى حاضره .. ! وتاريخ العقل أعدل شاهد على ما نقول .

ومعنى هذا أن قصور العقل عن إدراك ظاهرة ما ، أو تعادل السلب والإيجاب بصدد حكمه عليها ، لا يبرر التأدى من ذلك إلى متابعة هذا القصور ، والإذعان لهذا العجز ، والانتهاء إلى إنكار الظاهرة نفسها ، وإذا كنت قد كفلت للعقل سلطانه فى علاج هذا البحث منذ بدايته إلى نهايته ، فقد ألزمته حد الترجيح ، وأبيت عليه أن يتجاوز مجاله إلى نطاق اليقين ، رعايةً لحدس القلب ، واتّقاءً لما يحتمل أن يترتب على إفراد العقل من شطط التقدير ، وما أظن أنى — وأنا أُكبر العقل وأعتبره أكمل أدوات المعرفة إطلاقا — أغالى إذا قلت إن من الخير لمن لم يجد من منطق عقله ، ما يهديه إلى وجه الاطمئنان ، أن يتريث فى إصدار حكمه ، وحسب الإنسان فى بعض الحالات وحى قلبه ، فربما كان هذا أصدق من لجاجة العقل وجموح تأملاته .. !

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة : ٣ ـ ٦

الباب الأول : علم الغيب عند مفكري الإسلام ٧ ـ ٣٤

١ ـ علم الغيب

حد الغيب ص ٩ ـ علم الغيب لا يجيء اكتسابا ١٠ ـ العلم بالغيب عند صفوة البشر ١١ ـ علة الإدراك الغيبي ١٣ ـ اتجاهات المفكرين في تفسير الوحي والإلهام ١٤ ـ الاتجاه الفلسفي ١٤ ـ الاتجاه الصوفي ١٥ ـ منابع هذه الأفكار : موقف القرآن الكريم ١٧ ـ موقف اليونان والرومان من العلم بالغيب ١٩ ـ المسلمون بين القرآن وتراث القدماء ٢٢ ـ ملاحظات على بعض ما سلف ٢٣

الباب الثاني : التنبؤ الطبيعي عند مفكري الإسلام ٣٥ ـ ٩٠

١ ـ إدراك الغيب عند الأنبياء ٢٧ ـ ٣٩

العلم النبوي ص ٢٧ ـ إمكان الوحي ٣٠ ـ تلاقي النبوة والفلسفة ٣٢ ـ نماذج من نبوءات رسول الله ٣٣ ـ القرآن والعلم ٣٥ ـ بين الدين والعلم في هذا الصدد ٣٦ ـ منابع التفكير الإسلامي في الوحي : موقف القرآن ٣٦ ـ موقف اليونان والرومان من الوحي ٣٨

٢ ـ إدراك الغيب عند أهل الكشف الصوفي وصلته بالنبوة ٤٠ ـ ٦٧

علاقة الولاية بالنبوة ٤٠ ـ الولاية دون النبوة ٤٠ ـ الولاية صنو النبوة ٤١ ـ الولاية

أسمى من النبوة ٤٢ ـ الكشف عند الصوفية ٤٣ ـ عوائق الكشف الصوفى ٤٤ ـ طريقة الكشف عند الصوفية ٤٥ ـ الكشف عند أهل التصوف السنى ٤٧ ـ الكشف عند أهل التصوف الإشراقى ٥١ ـ موقف الفقهاء من الصوفية ٥٢

أشباه الصوفية من مدركى الغيب ٥٤ ـ إدراك الغيب عند المجانين والمصروعين ٥٤ ـ إدراك الغيب عند المعتوهين من مريدى الصوفية ٥٥ ـ إدراك الغيب عند المرضى والمشرفين على الموت ٥٦ ـ منابع الكشف الصوفى فى التراث القديم ٥٨ ـ موقف الدين الإسلامى من هذه الآراء ٦٠ ـ الكشف الصوفى فى تراث اليونان والرومان : موقف الرواقية ٦١ الفنوصية والأفلاطونية الجديدة وأثرها فى الكشف الصوفى ٦٣ ـ فى التراث الشرقى القديم ٦٤ ـ أهل الكشف من المجانين والمرضى ومن إليهم ٦٥

٣ ـ الرؤيا الصادقة ٦٨ ـ ٩٠

علاقة الرؤيا بالنبوة والولاية ٦٨ ـ مذاهب المفكرين فى تصور الرؤيا وتعليلها ٧٠ ـ الاتجاه الصوفى ٧١ ـ الاتجاه الفلسفى فى تصورها وتعليلها ٧٥ ـ مناقشة الادعاء بأنها وحى إلهى ٧٨ ـ تأويل الرؤيا ٨١ ـ نماذج من الرؤيا الصادقة وتحليلها ٨٣

الباب الثالث : فنون التكهن الصنعى عند مفكرى الإسلام ٩١ ـ ١٦٣

فنون التكهن الصنعى ٩٣

١ ـ علم الكهانة ٩٣ ـ ١٠٤

آفاق الكهانة ٩٣ ـ أصل الكهانة ٩٦ ـ صلة الكهانة بالنبوة ٩٧ ـ مراتب الكهان ١٠١ ـ نموذج من الكهانة ١٠١

٢ ـ علم العرافة ١٠٥ ـ ١٠٨

حدها وتميزها عن الكهانة ١٠٥ ـ نماذج من العرافة ١٠٨

٣ — علم الفأل والطيرة والعيافة ١١٠ ـ ١١٥

الفأل والطيرة ١١٠ ـ فن العيافة ١١١ ـ الفأل والطيرة بين التأييد والإنكار ١١٢ ـ صفة الزاجر ١١٥

٤ — علم أحكام النجوم ١١٦ ـ ١٣٥

علم التنجيم ١١٦ ـ ميدانه ١١٧ ـ فى تاريخه وتطوره ١١٩ ـ طرقه ١٢٢ ـ علم التنجيم بين أنصاره وخصومه ١٢٣ ـ علم التنجيم بين الإلهام والتجربة والاستدلال ١٢٩ التنجيم فى قصور الحنفاء ١٣٢ ـ فروع النجوم ١٣٤

٥ — علم الفراسة وأشباهها ١٣٦ ـ ١٤٤

ماهيتها وآفاقها ١٣٦ ـ تفريع الفراسة ١٣٧ ـ قيافة الأثر والبشر ١٣٩ ـ نماذج من قيافة الأثر ١٤٠ ـ قيافة البشر ١٤١ ـ أشباه الفراسة ١٤٣

٦ — علم السحر ١٤٥ ـ ١٥٢

موضوعه ١٤٥ ـ مكانه فى مجال الإدراك الغيبى ١٤٨

٧ — موقف أهل الشرع من العلوم السالفة ١٥٣ ـ ١٥٦

٨ — موقفنا من التكهن الصنعى ١٥٧ ـ ١٦٣

٩ — كلمة أخيرة ١٦٣ ـ ١٧٠

التنبؤ بالغيب بين مفكرى الإسلام وفلاسفة اليونان والرومان ١٦٤ ـ نتائج التشابه فى مصادر الأثارة ومراكز الاستجابة ١٦٤ ـ عود إلى موقفنا من التنبؤ ١٦٨ ـ فهرس الكتاب ١٧١ ـ كتب المؤلف ١٧٤

obeikandl.com

كتب للمؤلف

١ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام ـ صدر فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية . فى أكتوبر ٩٤٥

٢ — الأحلام ـ بحث مقارن : جاز امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة فى مايو سنة ٩٤٣ وقامت بنشره مكتبة الآداب. ظهر فى آخر سبتمبر ٩٤٥

٣ — الشعرانى : إمام التصوف فى عصره ـ صدر فى سلسلة أعلام الإسلام . (للجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية) ظهر فى أغسطس ٩٤٥

٤ — الفلسفة والإلهيات Philosophy & Theology ترجمة عن ا . غليوم ، نشرت مع التعليق عليها فى كتاب تراث الإسلام The Legacy of Islam الذى قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم ظهر فى أكتوبر ٩٣٦

٥ — قصة الكفاح بين روما وقرطاجنه ـ قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم . ظهر فى نوفمبر ٩٣٦

٦ — العلم بالغيب فى العالم القديم ـ لفيلسوف الرومان وخطيبهم «شيشرون» + ٤٣ ق . م Cicers قدمت الترجمة مع التعليق عليها ملحقا لرسالة الدكتوراه السالفة الذكر . (سيطبع قريبا)

٧ — التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى ـ بحث جاز امتحان الماجستير بمرتبة الشرف فى يونيه ٩٣٨ (سيطبع قريبا)

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها: الدكتور على عبد الواحد وافى، رئيس الجمعية — والدكتور عثمان أمين، سكرتيرها العام

يشترك فيها أعضاء الجمعية في الفلسفة وعلم الاجتماع. تستأنف النهضة العلمية في مصر وتجعل مسائل الفلسفة في متناول الجميع، ضرورية لكل مثقف وباحث.

ظهر منهـــا :

١ — فيلسوف العرب والمعلم الثانى : لمعالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا
الرئيس الفخرى للجمعية ووزير الأوقاف

٢ — الأسرة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٣ — شخصيات ومذاهب فلسفية : للدكتور عثمان أمين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

٤ — الحياة الروحية فى الإسلام : للدكتور محمد مصطفى حلمى
مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب

٥ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى
رئيس قسم الفلسفة بجامعة فاروق

٦ — التصوف وفريد الدين العطار : للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

٧ — المسئولية والجزاء : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٨ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام: للدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول

obeikandi.com